سِمَاتُ
بَيانِ النَّبِيِّ ﷺ في شَأنِ المَرْأةِ

بقلم
مَحمود توفيق مُحمَّد سَعد
الأستاذ غير المُتفرِّغ
في كليَّةِ الدِّراساتِ الإسلاميةِ والعربيَّةِ للبَنات بالقاهرةِ جامعةِ الأزهر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ ،وَسَلِّمْ ،وبارك عَلَى سيدِنَا مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وصَحابته ومَن تبعَه بإحسَانٍ إلى يومِ الدِّينِ ، كَمَا صَلَّيْتَ وسلَّمتَ ، وباركْتَ عَلَى سيِّدنا إبراهيم ،وعلى آلِ سيِّدنا إبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ واجْزِهِ عَنَّا كَمَا هُو أهْلُهُ عدَدَ خلقِكَ ، ورِضاءَ نفسِك، وزِنَةَ عَرْشِك وَمدادَ كلماتِكَ ،كَمَا تُحِبُّ رَبّنا وتَرْضَى. واجْعلْ جميعَ أمْرِنا قولًا وفعلًا وحالًا خالِصًا لوجْهِكَ الكريم.

اللهُمَّ إِنِّي أسألُكَ أنِّي أشْهَدُ بِأنَّكَ أنْتَ اللهُ لا إِلَهَ إلا أنْتَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ، الأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ, الَّذِي لَمْ تَلِدْ وَلَمْ تُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَد .أسألك أن تجزي عنا سيدنا رسول الله ﷺ ما هو أهله،وأن تنزله المنزل المقرب عند يوم القيام، وأن تجعلنا من أهل النصيحة لك ولكتابك ولرسولك ﷺ ولسنته وللمسلمين كافة،ولأئمتهم إيمانًا واحتسابًا وأن تجعلنا من أهل القرآن ظاهرًا وباطنا ، المستمسكين بسنة رسولك ﷺ قولًا وفعلًا وحالًا ظاهرًا وباطِنًا إيمانًا واختسابًا وان تجمعنا ووالدينا وأزوجنا وأبنائنا وأخوانناوأشياخنا وتلاميذنا وجيراننا معه ﷺ في الفردوس الأعلى.

أمّا بعدُ ، لمّا كان قولُ الله تعالى :(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[النحل:٤٤] { وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[النّحل:٦٤] هاديًا إلى إنّ سيِّدنا رَسولَ اللهِ ﷺ مُبيِّنٌ ما أنزلَ اللهُ ﷻ عليه ، فكان مناطُ العلاقةِ

بيْن القُرآنِ وبيانِ رسولِ الله ﷺ هو التَّبيين ، ولمّا كانَ البيانُ القرآنِيُّ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ كان ضرورةً أن بَيانُه ﷺ ليس تجْلِيةً مُعمّى {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ • نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ • عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ• بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}[الشعراء: ١٩٢ -١٩٥]

تبيينُه ﷺ القرآنَ إنّما هو تبيينٌ عمليٌّ ولسانيٌّ ، فكان عَمودُ أمرِ تَبْيينِه ضربيْن

الأولُ : التَّطبيقَ العمليّ السّلوكيّ ، فمَا مِن معنى منْ معانِي الهدَى في القرآن إلّا كان سيّدنا رَسُولُ الله ﷺ مبينًا له تبْيينًا عَمليًّا يتلقّاه أصحابُه ﷺ بأبصَارهم وبصَائرهم، وهذا تحقيقًا لقول الله ﷻ: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ • وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ • يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ <u>وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ</u> وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ • قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[المائدة: ٦٥ - ٦٨]

قولُه تعالَى : (<u>وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ</u>) مِنْ وجوه معناه عِندي، فإنْ لم تقيمه عملًا شهوديًا فما بلغتَ رسَالته، فكمالُ التَّبليغِ أن يكونَ عَمَلًا وقولًا فيتلقاه الصَحابةُ ﷺ منه ﷺ بأبصَارهم وأسماعِهم. إذ هما (السَّمْعُ والبَصَرُ) سبيلُ وُلوجِ المعانِي إلى الأفئدةِ التي منها يكونُ العقلُ

والفقهُ والعِلمُ والفهمُ الّذي هُو أعلى مراتبِ إدراك المعانِي ،ولا يتحققُ " الفهمُ" لأحد إلا إذا كان عاملًا بما عملِ إيمانًا واحتِسَابًا.

{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[النحل:٧٨]

{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً}[الإسراء:٣٦]

{وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}[المؤمنون:٧٨]

{ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}[السجدة:٩]

{ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}[المُلك:٢٣]

صرّف البيان عن هذه الثّلاثة فِي مواضِعَ عدةٍ مِن كتابِهِ العَزيز إعْلامًا بعظيمِ مِنّتِهِ - سُبْحانَهُ وَبِحمْدِهِ – بِها علَى بَنِي آدمَ ؛ ليكونَ منهم عظيم الاعتِناءِ بها، فيكون كلٌ قيومًا عليها رِعايةً وحمايةً، تزْكيةً مُطهّرَةً مُنَمّيَة ، وتنْكيةً مُنوّرة ، فيتحقّقُ بِها شُكْرُ هذِه النِّعَم شُكرًاعقديًا وعمليًا .

والآخرُ : التّفصيلُ والتّقريبُ اللسانِيّ ، وهوما يتمثلُ في بيان النّبوةِ القولِيّ الّذي هو مناطُ عناية العقلِ البَلاغيّ العربيّ تأويلًا واستنباطًا.

فمحمولُ تبْيينِهِ ﷺ العَمَلِيّ والِلّسانِيّ ليْسَ شيئًا مغايرًا لِما هُو مُبيّنُه، وإنّما الفرقُ بيْنهما فِي منهاجِ الإبانةِ القولِيّ ، وهذا يَعنِي أنّ ما يقُولُه ﷺ مبينًا

به الذكر الحكيم محولُه من معانِي الهُدَى هُوَ هُو هُو محول القرآن الكريم ، فما مِن معنًى في بيانه ﷺ إلّا ولَه أصلُه في بيانِ القُرآنِ .

وقوله ﷺ فيما رواه ابو داودَ في كتاب«السّنة» من سننه بسنده عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ... »

وفي رواية لأحمدَ في مسنده بسندِهِ عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ الْكِنْدِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ... ». آيةٌ على أنّ المِثليةَ فِي المحمولِ ذلك أنّه قال بعدَ ذلك في الرّوايتيْن : « أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِىِّ وَلاَ كُلُّ ذِى نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلاَّ أَنْ يَسْتَغْنِىَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ ».

« أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِى شَبْعَاناً عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ. أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِىِّ وَلاَ كُلُّ ذِى نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ أَلاَ وَلاَ لُقَطَةٌ مِنْ مَالِ مُعَاهِدٍ إِلاَّ أَنْ يَسْتَغْنِىَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُمْ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُمْ فَلَهُمْ أَنْ يُعْقِبُوهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُمْ ».

وهذا المحمولُ وإنْ لم تَجده فِي القُرآنِ بمنطوقِهِ فإنّه من أصلٍ قائمٍ في كتابِ اللهِ تعالى : {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ <u>وَيُحِلُّ</u>

لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[الأعراف:١٥٧]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[البقرة:١٧٢] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ • وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ} [المائدة : ٨٧ - ٨٨] {فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [النحل :١١٤]

فكان ذلك آيةً على أنّ مناطَ المثلية إنّما هو معاني الْهدَى وأنّ ما يَحملُه بيانُ النّبوةِ التّبيينيّ إنّما هو ممّا يَحملُه بيان القرآن الكريم ، وأنّ ما بيْنهما من تنوّعٍ ففِي منهاج الإعراب عن هذا المحمولِ منْ معانِي الهُدَى ، فالسّنة شارحةُ القرآنِ لم تأتِ بما يخالفُ منه شيئًا.

وهذا يَهديك إلى أنّ معانِيَ القرآنِ فيها ما هو بالغُ الّلطف منْ أنّها معانٍ لا تتَناهَى ، ولا تخلُقُ على كثرةِ الرّدّ ، وما كان كذلِك كان ضَرورةً أن يكونَ بعضُها بالغَ الّلطفِ ، لا يُطيقُ إدراكَه كلّ عليمٍ بلسانِ العربيةِ ، فكان ضرورةً -أيضًا - أن يَتولَى هذا التّبيينَ لِما هُو لَطيفٌ طريفٌ ،وما هو مُجْملٌ من معانِي البيان القرآنيّ سيّدُنا رسُولُ اللهِ ﷺ ، وأنْ يكونَ فِي تبْيينِه ذلِك المَعنى الّلطيفِ الطّريفِ من معاني الهدى ما يَهدِي ورثته منْ أهلِ العلم إلى منهاجِ التّبيين لما تحتاجُه أقوامُهم في أعصارِهم وأمصارِهم المُتلاحِقةِ والمُتباينَةِ فِي مساقاتِها وأحوالِها وحاجاتِها ، ذلك أنّ هذا القرآنَ إنّما هُو للنّاسِ كافّةً فِي كلّ عَصْرٍ ومِصْرٍ إلى قِيامِ الساعةِ ، واختلافُ

مساقاتِ الحياة في الأعصار والأمصار والأجناس يُفضِي إلى اختلافِ الحاجاتِ ممّا يُوجِبُ على ورثةِ النّبيّ ﷺ : علماءِ كلّ عَصرٍ ومِصرٍ أن يتولوا تَبيين هذِه الحاجاتِ وموقِعِها ممّا جاءَ به القرآنُ منْ معاني الهدَى، وان يكونَ منهاج تبيينهم الهدَى القرآني في ما نزل بهم من حاجات أعصَارهم وأمصارهم من منهاج تبيين رسُول الله ﷺ فكان قولُه: « ألاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ وَلاَ كُلُّ ذِى نَابٍ مِنَ السَّبُعِ » مثالًا تبيينيًا لورثتِه: علماءِ كلّ عَصرٍ ومِصرٍ، كيف يُبَيّنون موقعَ حاجاتِ أعصارِهم وأمصَارهم من معاني الهدى في القرآن : ما هو منها حلالٌ طيبٌ يتخذونَه، وما هو منها خبيثًا يَجتَنِبونَه .

فسيّدُنا رسُول الله ﷺ يَستَمدُّ مِن القرآنِ ، ويُعربُ عنه بِبيانِه ، وأعيانُ ورثتِه مِنْ علماءِ كلّ عَصرٍ ومِصرٍ يستمدونَ أيضًا القرآنِ ومن تبيين سيّدنا رسُولِ الله ﷺ ويُعربُونَ عَنْه بِبَيَانِهم بيانًا أنيسًا بأعصارِهِم وأمصَارِهم ، فإذا ما فَصّل سيّدنا رسُولُ اللهِ ﷺ بقوله: « ألاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ وَلاَ كُلُّ ذِى نَابٍ مِنَ السَّبُعِ » بعضًا مِن الخبائثِ المحرّمة عليهم، فإنّ ورثتَه : الأعيانَ مِنْ علماءِ كلّ عَصرٍ ومِصرٍ لَهُمْ ، بلْ عَليْهمْ أن يُفصّلوا الخَبائثَ المستحدَثة في أعصارهم وأمصارهم، ويُبيّنوا حرمَتها عَليهم ، فيكونُ ذلك مُستمدًا من كتابِ اللهِ تعالَى. ويكونُ إعرابُهم عن هذا ببيانٍ أنِيس بأقوامِهم فِي أزْمانِهم وأمكنتِهم المُتعدّدةِ المُتنوّعةِ .

وهذا يُوجِبُ البحثَ عَن سِماتِ بيانِ النّبوّةِ التّبْيينِيّ لِما فِي بيانِ القرآن من لطيفِ المعاني وطريفِها ؛ ليكونَ في ذلِك معالمَ يُهتدي بها ورثتِه ﷺ :

أعيانِ علماءِ كلّ عصرٍ ومصرٍ في تبيينِهم موقعَ ما استحدث في قومِهم مِن بيانِ القرآنِ الكريمِ معانِي الهُدَى .

لذا كانت هذه الأوراق ساعيَةً إلى أن تَنْظُرَ فِي بعضِ سِماتِ بيانِ النّبوةِ التبيينِي ، ولمّا كانَ غيرَ يَسيرٍ أن يَكونَ ذلك فِي كلّ ما جاءَ فيه التّبيينُ النّبَويّ مِنْ مجالاتِ الحياة، كان ضَرورةً أن يُختارَ مجالٌ منْها ، فرأيتُ أن يكونَ شأنُ المرأةِ مجالًا؛ لحاجةِ هذا المجالِ إلى أن يكونَ مناطَ عِنايةٍ فِي بيانِ ما هو فاصمٌ بيْن الحقّ والباطلِ، والطّيبِ والخبيثِ ، لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .

وإذا ما كان بدهيًا أنّ سِماتِ المُبِينِ الْخُلقيّة حاضرةٌ في بيانِه علَى ما قرّره أهلُ العلم بالبيان الّلسانيّ وأن بملكك أن تعلمَ سِماتِ المُتكلّم الْخُلقيّةِ مِن مدارَسَة كلامِه ، فإنّ السّماتِ الخُلقية لسيّدِنا رَسُولِ الله ﷺ قائمةٌ في بَيانِه ، وكذلك يَنبغِي أن تكونَ السّماتُ الخُلقيّة لوَرثتِه : أعْيَانِ كلّ عَصرٍ ومصرٍ قائمةً في بيانِهم التّبيينِي لِما فِي بيانِ الْوَحي قُرآنًا وسُنةً .

ومن البين أن أحكام العقيدة والأخلاق ثابتةٌ لا تتأثر بالسياقاتِ الزّمانيّة والمَكانيّة، فهذه تجري فِي كلّ عصرٍ ومِصر إلى قيامِ السّاعةِ ، ولا يَجري فيها «نسْخٌ» زمن الوحي كمَا يجري فِي أحكامِ الحلالِ والحَرامِ ،وفق ما تقضِي به الحكمة الرّبانيّة .

وحقّ مُبينٌ مكينٌ أنّ أحكامَ الشّريعةِ ولا سِيّما المتعلّقةُ بعلاقةِ الإنسانِ بالحياةِ كونًا وإنسانًا هِي على ضربين :

(الأوّل) : ما هو ثابتٌ لا يَتغير حكمُه بتغيّر الزّمانِ والمكانِ ، فهذا يُقالَ فيه بما قِيل فِي كُلّ عصْر مِن أعيان عماء الأمةِ.

و(الآخر) ما كان لتغيرِ الزّمانِ والمكان أثر فيه ، فهذا من الحكمة أن يكون لأعيان علماءِ كلّ عصرٍ ومِصرٍ نظرٌ فيه ، فليس مِن الحِكمةِ في هذا الضربِ أن يُفتي علماء قطر متباعدٍ لأبناءِ قطرٍ آخر، ولا أن يُفتَى بتبيين علماءِ عَصرٍ سحيقٍ لأبْناءِ عَصرٍ حاضِرٍ ، في قضايا هذا الضربِ ، فإنّ السّماتِ الخُلُقيةَ والعقليّةَ الدّقيقةَ مُتباينَةٌ فِي الأقطار والأعصارِ .

ولذا أرَى مِن الحِكْمةِ ألّا يُتخذَ كلُّ ما في أسفارِ علماءِ القرنِ العاشرِ الهِجريّ مثلًا قانونًا يُطبقُ بحذافيره على ما استحدثَ من وقائعَ أبناءِ القرن الخامسِ عشر من الهجرة ، بل يَتخِذُ علماءُ القرنِ الخامسِ عشر ما فِي أسفارِ اجتهادات وشروح وفتاوى علماءِ القَرنِ العاشِرِ مَصدَرًا يسْترشَدُ به ، ويُتَعَلّمُ منه منهاج التَّبيين فِي ضوءِ مُستحدَثاتِ الحياةِ وَوقائعِها فِي القرآن العاشر،، فيكون ذلِك نبراسًا يَهتدِي به العلماءُ لا ليُطبّق بحَذافيره على أبْناءِ القَرن الخامسِ عشر مِن الهجرةِ ، فمَا فِي أسفارِ اجتهاداتِ وشُروح وحواشي عُلماءِ القُرون السَّابِقةِ إنّما مَحلُّها مَعاهِد المدارسةِ المتخصّصِةِ،وليْست للتَّطبيق فِي الحياة العصريّةِ .

واجبٌ على أعيانِ علماءِ هذا العَصر وكبارهمْ فِي كلّ مصرٍ أن يَتَّخِذوا بأنْفُسِهم أسفارًا بيانُها أنِيسٌ بأبناءِ عصرِهِم ، وإلّا لَما كانُوا أهلًا لأن يكُونوا ورَثةَ سيّدنا رسُولِ الله ﷺ .

ولا يَتَوَهمَنّ أحدٌ أنّي أدعو إلَى نبذِ أسفارِ اجتهاداتِ أعيانِ عُلماءِ القُرون السّابقة أوْ أدعُو إلَى وضع أصولٍ جديدةٍ لِفقهِ بيانِ الوَحي قُرآنًا وسُنّة – لا يَقولُها واحدٌ مِن الدّهماءِ - إنّما أدعُو إلى أن تكونَ أسفارُ اجتهاداتِ أعيانِ عُلماءِ كلّ عصرٍ مَجالُ تَطبيقها فِي عصرِهم ، وأن تُتَّخذَ هذِه

الأسفارُ معالِم علَى الطَّريق يُهتدَى بها أعيانُ العلماء فِي منهج الاجتهادِ وفق وقائع العصر لا أن ينزّل مَا فِيها مِن اجتهاداتٍ علَى وقائع قرونٍ جاءت من بعدِها .

لذلِك ليسَ حكِيمًا ولا قَويمًا أن يأتِي مَن ليسَ من أعيانِ أهلِ العلم وكباره في عصرنا ، فيأخُذ مِن أسفارِ اجتهاداتٍ وشروحٍ وفتاوى علماءِ القَّرونِ السابقة ، ويُفتي بها على ما نراهُ ونسمعُه من صغار طلابِ العلم في وسائلِ الإعلامِ الّتي عَمدَت إلى صغار أئمةِ المساجِدِ بديلًا عن أعيان العلماء وكبارِهم ، لِيقطعُوا بفتواى نُقلت مِن شروح وحواشٍ لعلماء القرون السَّابقة دون أن يكونَ مِنهم مدارسةٌ لواقِعاتٍ وسياقات حركةِ الحياةِ في هذا العصر، وعظمهم يستدلون بأقوالِ علماء قرون سبقت، لا بكتابِ الله تعالَى وسنةِ رسُولِه ﷺ ومقالات العلماء لا يُستدلُ بها ، ولا يعترضُ بها على اجتهادِ عالمٍ آخر ، بل يُستأنس ويستهدي بمنهاج الفهم ، لا بثمارِ الفهم

فرقٌ بين الاستدلالِ بأراء العلماء والاستهداء بها

وفرق بين الاستهداء بمنتهج الفهم، والإخذ بقمار فهمهم.

مقالاتُ العلماء ,آراؤهم تحتاجُ إلى دليلٍ ، وليس من دليلٍ إلا الكتابُ والسّنة .

•••••

تسْعَى هذِه الأوراقُ إلى أن تُقدّم شيئًا تَحسِبُ أن فيه نفيعًا لراقنه ،ولقارئه.

فأنت لَن تُطيقَ الاستدلالَ بشَيْءٍ مِن الكتابِ والسُّنة إلَّا إذا كُنت بَصيرًا بمنهاج الإبانةِ فيهما ، وبِسماتِ الإبانةِ فِي كلّ .

ومِن ثَمّ كان البَصَرُ بسماتِ بيان النّبوة فريضة عينٍ على مَن قام ليستدلّ ببيانِه ﷺ ، وقد يستدل واحدٌ بحديثٍ صحيحٍ على أمرٍ لا يكونُ هذا الحديثُ دليلًا عليْه من أن هذا المستدلّ به، لا يفقه منهاجَ الإبانة النّبويّة ، ولا يَعرف سماتِ بيانِه ﷺ ، فيخطِئُ في الاستدلالِ لا في الدّليل. وعُظم ما تراه من اختلافِ بيْن الفقهاءِ ليْس فِي الدّليل، وإنّما فِي الاستدلالِ بِهِ.

وقد جَعلتُ القولَ في هذِه الأوراقِ علَى محاورَ عشرة: تسعةٌ مِنها تُحقّق شيئًا من الرّؤيةِ النّظريّة التي يُفاد بها فِي تحقيقِ القولِ في المحوَر العاشر منها ، الّذي هو الأهمُّ ، فكأنّ القولَ في التّسعةِ المحاورالسابقتِه كالخادِم للقول فِي المحْور العاشر مِنْ أنّه – أيْ العاشرَ - مُحاولَةٌ للتّأويلِ القويمِ لما جاءَ به سيّدنا محمدٌ ﷺ في شأنِ المَرأةِ .

فكانتْ محاورُ القولِ في هذا على النّحو التّالِي:

- المقصدُ الأعظمُ من مُدارسةِ سِماتِ بيانِه ﷺ في شأن المرأةِ.
- مفهوم سِمات بلاغة بيانه النّبويّ ﷺ ومناطاتها
- مفتاحُ التّلقي من بيانِه ﷺ
- بلاغتُه ﷺ ضرورة دعوية
- مصادر بلاغتِه ﷺ
- بلاغته ﷺ بين الإعجاز والإبداع
- موقع بيانه ﷺ من بيان القرآنِ
- عوائق التلقّي عنه ﷺ
- عوامل التّهيؤ للتلقي عنه ﷺ وضوابطه

- مدراسةُ بعضٍ مِن بيانِهِ ﷺ عَن المرأة

•••••

وليس من ريبٍ في أنَّ بيانَ النَّبيِّ ﷺ عن المرأةِ قد سبق لأهلِ العِلم القولُ فيهِ كلٌّ على منهجٍ في قولِهِ ، ولمَّا كان هذا البيانُ النَّبويّ التَّبيِنيّ ، لا يُطيقُ واحدٌ أن يُوَفِيَهُ حقَّهُ كان ذلِك كالباعثِ لك ولي أن نَعمد إِلَى أن يكونَ لَك ولِي نصيبٌ مِن شرفِ الإبانةِ عَن شيْءٍ مِن سِماتِ بيانِ سيِّدنا رَسُولِ اللهِ ﷺ

ولا تحسِبَنَّ أنَّ بملكِي أن أُحيطَ بكلِّ سماتِ بيانِه الأسلوبيّة العامّة، والسّماتِ الأسلُوبيّة الخَاصّة بالأغراضِ، والسّماتِ الأسلُوبيّةِ الخاصّة بالمواضوعاتِ ، وإن بَقِيتُ دهرًا متخفِّزًا مُعتكِفًا

ولَعلّ هذِه الأوْراق تحملُ شيئًا من ذلك الّذِي يَرجُو راقمُها أن تكونَ له لا عليْه في الدّارين، وأن تكونَ سببًا في التّأهُّل لاكتسابِ رضوانِ اللهِ ﷻ وأن يقتدر نمن يقرأ بفؤاد رشيد ما فيها، فيسعى إلى أن يقُوم هوفي هديِهِ ﷺ ، ليصلَ إلى مقامِ أن يقُومَ هديه ﷺ فيه ،وتلك التي دونها أبعادٌ وآماد ع والله ﷻ نسألُ أن يجودَ علينا بِصُحبةِ سيّدنا رَسُول اللهِ في الدُّنيا في هديه وسنته، وأن يجودَ علَيْنا بصحبته ﷺ في الآخرة في الفردوسِ الأعلَى مَع النّبيّين والصّدقين والشُّهداءِ ،والصالحين وحسُن أولئك رفيقا .

اللّهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَى سيّدنا محمّدٍ وعلَى آلِهِ وَأزواجِه وأصحابِه والذين آمنوا به واتبعوه حبًا وتزلفا ،واجوه عنا ما هوأهلُه ، وأنزلْهُ المنزلَ المقرّبَ عنْدك يومَ القيامة، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِى وَعَدْتَهُ .والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

وكتبَه

مَحمُود تَوفِيق مُحمّد سَعْد
الأستاذ غير المتفرّغ في قسم البلاغةِ والنقد
في كليّة الدِّراساتِ الإسلاميةِ والعَربيّة للبَناتِ بالقاهرةِ
جامعة الأزهر
القاهِرة – مدينة الشروق
الثُّلاثاء الرَّابع مِن شَهر رَبيع الأول عام ١٤٤٥هـ
الرابعة فجرًا.

محــاورُ مدارسةِ بيانِه ﷺ

- المقصد الأعظم من دِراسةِ سماتِ بيانِه ﷺ في شأن المرأة .
- مفهوم السمات البلاغية لبيانه ﷺ ومناطها .
- مفتاح التلقي من بيانِه ﷺ .
- بلاغته ﷺ ضرورة دعوية ,
- مصادر بلاغتِه ﷺ
- بلاغته ﷺ بين الإعجاز والإبداع
- موقع بيانه ﷺ من بيان القرآن .
- عوائق التلقّي عنه ﷺ
- عوامل التّهيؤ للتلقي عنه ﷺ وضوابطه

- مدراسة بعضٍ من بيانه ﷺ عن المرأة

المحور الأول

المَقْصِدُ الأعظمُ

مِن مُدارسةِ سِماتِ بيانِه ﷺ في شأنِ المرأةِ

لكلِّ عملٍ ، ولا سيّما الأعمالُ العلميّةُ الّتي منْ شأنها أن يترتّبَ عليْها عملٌ نافعٌ للقائمِ لها، وبها ولقومِه مقصِدٌ أعظمُ ، هُو المَأمّ الأنفسُ والمَحَجّ الأقدَسُ ، به يتحَرّر المنهجُ ، وتُصطفَى الأدواتُ ، وتستحضَرُ المهاراتُ والخبراتُ ، وإلّا كانت تلك الإعمالُ علَى صُعوبتِها وعلَى كثرَةِ استحقاقاتِها عَمَلًا عبثيًا أوْ ترفًا لا يأنَسُ به السِّياقُ الحَضاريُّ للإنسانِ فِي عَصرِنا ، فإنّا فِي عَصْرٍ الترَفُ فِيه حُمْقٌ وَسَفَةٌ وحقٌّ القائم له الحَجْرُ عليْهِ وِقاءً له ولقومِه وللحياة، فكيفَ بالقائمِ فِيه؟!

{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء: ١٦][1]

---

[1]) جاءت قراءاتٌ في قولِه: (أمرنا) :

الأولى) من "الأمر"الذي هو ضدٌ :النّهي" أي أمَرْناهم بالطاعةِ ، ففسقوا ، فأهلكنا . وهذه قراءة الجمهور(أي اختيارُ الجمهور)

والثّانية) من "الإمْر" أي الإكثار أي أكثرْناهم أي جعلناهم الأكثر قوةً ونفوزًا وعتادًا....

يقال :(أمِرَ) على زنة (علِم) أي كثر أهله أو خيرُه أو شأنه .

قال أبو سفيان بعد لقائه " القيصر"   « قُلْتُ لأَصْحَابِى حِينَ أُخْرِجْنَا : " لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِى كَبْشَةَ . إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِى الأَصْفَرِ" . فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَىَّ الإِسْلاَمَ . »(صَحيح البخاري. كتاب بدء الوحي . حديث رقم :٧).

وحِين تكونُ الأعمالُ العِلمية مرتبطةً بمَسير الإنسان مِن وجهٍ وبمصيره مِن آخر لا بُدّ أن يكونَ المقصدُ الأعظمُ مقصِدًا نبيلًا. وما نحن الآن بصدِده من النّظر العلميّ في (سِمات بيانِ النّبوةِ في شأنِ المرأة) إنّما هُو عَملٌ بالغُ الأهميّة مثلما هُو بالغُ كثرةِ الاستحقاقات الّتي يجبُ على مَن هو قائمٌ له أن يسْعَى جاهدًا إلَى تحقيقها بامتلاك ما لا تَحَقُّقَ إلّا بها.

وتحريرُ المقصدِ هو أوّل خطوةٍ يُمارسُها أولو النُّهى إذا قامُوا لأعمالٍ ذاتِ أثرٍ جليلٍ ، وهذا ما هدَى إليه بيانُ النّبوّة فيما استفتحَ به الإمامُ البُخاريّ صحيحَه الجامع وجعله طليعة كتاب «كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» وهو ما رواه بسندِه عَنْ عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ

ومنه ما رواه أحمد في مسندهِ بسندِه عَنْ سُوَيْدِ بْنِ هُبَيْرَةَ - رَضِي الله عَنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « خَيْرُ مَالِ الْمَرْءِ لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ ».

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ :" سِكَّةٌ " يَقُولُ : هِيَ الْمُصْطَفَّةُ مِنَ النَّخْلِ ، وَأَمَّا "الْمَأْبُورَةُ " فَإِنَّهَا الَّتِي قَدْ لُقِّحَتْ وَأَمَّا " الْمُهْرَةُ الْمَأْمُورَةُ "فَإِنَّهَا الْكَثِيرَةُ النِّتَاجِ.

والثّالثة) (أمّرْنا) أي جعلناهم أمراء القوم ورؤساءَهم ، ففسقوا ، فأهلكنا ، فحين يكون أمير القوم مترفًا ، فعقبى أمرهم الهلاك.

قرأ بها ابن عباس وأبو عثمان النّهدِي وأبو العالية والحسن ونسبت هذه القراءة إلى عاصم وأبي عمرو البصريّ ،وهي شاذة .

(ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. تأليف :أبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)تحقيق علي النجدي ناصف،وعبد الحليم النّجار، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي - النّاشر: وزارة الأوقاف المصرية -المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.الطبعة عام : ١٤٢٠هـ . ج:٢ص ١٥ -١٧

مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» ([1])

جَعل الأعمالَ فِي قبولِها وردِّها ، وفي قِيمتِها عُلُوًا وسُفُولاً مَرْجِعَها إلى النِّيَةِ الَّتي انعقَدتْ فِي قَلْبِ مَنْ قَامَ إِليْها ؛ لِيُنجزها.

إنَّ أوَّلَ مَا يَجِبُ أن يعنَى بِه المَرءُ إنَّما هُو تَحقِيقُ نِيَّته مِن عَملِه الَّذي سبق أن تصورَّه وتحرير هذه النِّيةِ بحيثُ يكونُ مقصِدُه مُتعينًا صَفيًا غيرَ مَشوبٍ بِشَيْءٍ، فإنْ عَجَزَ عَنْ ذلِك، فَلْيَتوقَّفْ حتَّى يَتَمَكَّنَ مِن تحقيقِ ذلك.

---

[1]) هذا الحديث لا تظهر مناسبة روايته في هذا الباب فضلًا أن يكونَ طليعةَ أحاديثِ هذا الباب ، وهذا ما عمد أهلُ العلم لبيان الحكمة من افتتاح البخاري به هذا الباب.

منهم من ذهب إن أنه بدأ به للتبرك

ومنهم من ذهب إلى أن البخاريّ لَمْ يَقْصِدِ بِإِيرَادِهِ سِوَى بَيَانِ حُسْنِ نِيَّتِهِ فِيهِ فِي هَذَا التَّأْلِيفِ .

ومنهم من ذهب إلى إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَهُ مَقَامَ الْخُطْبَةِ لِلْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ فِي سِيَاقِهِ أَنَّ عُمَرَ قَالَهُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِمَحْضَرِ الصَّحَابَةِ فَإِذَا صَلَحَ أَنْ يَكُونَ فِي خُطْبَةِ الْمِنْبَرِ صلح أن يكون فِي خطْبَةِ الْكتاب

ويذهب ابن حجر في «الفتح» إلى أن " مِنَ الْمُنَاسَبَاتِ الْبَدِيعَةِ الْوَجِيزَةِ ... أَنَّ الْكِتَابَ لَمَّا كَانَ مَوْضُوعًا لِجَمْعِ وَحْيِ السُّنَّةِ صَدَّرَهُ بِبَدْءِ الْوَحْيِ وَلَمَّا كَانَ الْوَحْيُ لِبَيَانِ الْأَعْمَالِ الشَّرْعِيَّةِ صَدَّرَهُ بِحَدِيثِ الْأَعْمَالِ"

وتأسيسًا على هذا يمكنك بلاغيًا أن تستحضر حكمة ختم البخاري كتابه بما رواه بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ "(حديث رقم: ٧٥٦٣) كتاب التوحيد"

وكان ظاهر الأمر أن يُجعل كتاب" التوحيد" عقب كتاب " كيف بدء الوحي" وكأنه يشير إلى أن هذا الدين إنَّما يؤسَّس على صفاء القصد ، وحسن النَّهي ؛ لِيَنتهي بصاحبه إلى كمال التنزيه والتقديس لله ربِّ العالمين الذي يشير إليه قوله « سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ »

ولمّا كان عنوانُ هذا العملِ « سِماتُ البيان النّبويّ في شأن المرأة» قد يُظَنّ إنّه دراسة بلاغيّةٌ صِرفةٌ ، وأنَّ القصدَ إلى العِرفانِ بِما يَتَسِمُ به بيانُ النّبوة في بابٍ من الأبوابِ وأنّ عمودَ أمرِها إنّما هو تبيُّن معالِمِ بلاغتِه صلّى الله عليْه وسلم. وقُضِي الأمر.

الحقّ المبينُ المَكينُ أنّ مَن حسِبَ أن «علم البلاغة العربيّ» علمٌ منتَهى قصدِه مدارسةُ سماتِ بلاغةِ البيان وما اشتملَ عليْه من الخواصّ التّركيبيّة، والدّلاليّة، ومدَى مطابقتِه لمقتضَى الحالِ إنّما هو غيرُ حكيمٍ ما كان لهذا العِلمِ أنْ تكونَ تلك طَلِبتَه ، وذلك منتَهَى مَغزاه . مَن كان هذا مرادَه مِن هذا العلمِ فإنّما يُنفِقُ عُمُرَه وجُهدَه في ما لا أثر له في أخراه إلّا الإسرافَ والتّبذيرَ في عُمُرِه وجُهدِه .

{إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأعراف:٣١]

{إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[الإسراء:٢٧].

إنّ ذلك العلمَ :«علمَ البلاغةِ العربيّ» علمٌ تربويّ إصلاحيّ ، مقصده الرّئيس هو إخراج النّاسِ من الظُّلماتِ على تعدّدها وتنوعها وتراكمها إلى النور، والارتقاء بأولي الألباب من مقامٍ إلى مقامٍ أعلَى إلى أن يُقيمهم طوافين حول حمًى «كأنّك تراه»

هو علم تربويّ إصلاحيٌ يسعَى إلى صناعةِ المرءِ العابدِ المُحبّ لربّه - سُبْحانَه وَتَعالَى – الّذي لا يرجُو الجَنة إلّا لأنّ فيها سيّدنا رسُول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - وفيها تتحقّق له رُؤية ربّه - سُبْحانَه وَتَعالَى

مقصدُنا الأعظمُ مِن مدارسةِ بيانه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - قائم منْ ثلاث كليلت متآخِذة :

الكليّة الأولَى)

أن نبيّن للمرأةِ المسلمةِ معالمَ ما أثنى به الله تعالى على سيّدِنا رَسوله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - بقوله (وإنّك لَعلى خُلقٍ عظيمٍ) ([1]) في ثلاثةِ مَجالاتٍ :

= المجالُ الأوّلُ :

معالمُ خُلقه العظيم في علاقته - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - بربّه سبحانه وتعالى .

= والمجال الثّاني:

معالمُ خلقِه العظيم في علاقته بالّذين أمنوا به ولا سيّما "المرأة". وكيف أن بيانَه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - في شأنِ ربائبِ أمّنا خديجةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - يُصوّر سمُو قدرهن عنده - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - تصويرًا لَو فقِهْنَه لكنَّ الحامِداتِ الشّاكرات صَباح مساءَ أن جعلهنّ الله تعالَى نساءً، وأنْ جعلهُنّ مِن ربائبِ خديجةَ رَضِي الله عنْها ،لا مِن ربائبِ "أم جميل".

= والمجال الثّالث :

---

[1]) أذهبُ إلى أنّ هذه الآية الكريمة هي جُمْعة ما أثنى به الله تعالَى على عبدِه ونبيّه ورسُولِه سيّدنا محمّد - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ،وكلُّ ثناءٍ عليْه إنما مندرجٌ في هذه الآية، فهي نموذج أمثل لما يسميه البلاغيون «إيجاز قِصَر» لو شئت أن تفصّل مجمله ما اتسع له عُمُرك وأن امتد وجُهدك وإن استفحل.

معالم خلقه العظيم في علاقته بالعالمين. الممثلة في قولِ الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}[الأنبياء:١٠٧](١)

زما رواه الحاكم فسي «المستدرك» بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»(٢)

فالأية والحديث هاديان أن أمرَه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - مع كلِّ العالمين إنّما عمودُه الرَّحمةُ العامة. فلا يكونُ منه شيْءٌ لهم أوْ عليْهم إلا رحمةٌ . فإن أحسنُوا البصرَ فيها أدركوا معالمَ الرّحمة .

وهذا يهدي إلى أنّه إذا ما كان في بيانه ما قد تضيقُ به بعضُ النفوس، فيتتوهم أنّ فيه تعسيرًا لوأنها أنصفت ، وتجرّدت من العوائق والشواغل، وأبصرَتْهُ في حَيْدة ، لكانت أهلًا لأن تُبصِر معالِم الرّحمة حتّى في قِتالِه الذين يصدُّون عَن سبيلِ الله تعالى.(٣)

---

١) جاءت هذه الأية في خواتيم سورة«الأنبياء» التي تقصّ علَيْنا نبأهم غبلا لَسجازو خل نبأ سيّدنا إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلامُ - ،(الأية٥١- ٧٣) فكانت هذه الآية : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}[الأنبياء:١٠٧] نبا عن سيدنا رسُول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - وهي بالغة الإيجاز في بيان شأنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - وما يكون منه وبه للعالمين أجمعين .

٢) وراه الطبراني في المعجم الصغير،والدارمي في مقدمة سننه عن أبي صالح مرسلًا،ولعله عنه عن أبي هريرة .

٣) قلت :" في قِتالِه الذين يصُدون عن سَبيل الله" ولم أقل الذين لم يؤمنوا به، ذلك أنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - لم يقتل أحدًا ممن لم يؤمن به،ولم يقاتله مادام مسالمًا ، وإنما قتاله لم يَصُد غيرَه عَنْ سَبيلِ الله، فليس قتالُه – لا قتله – على الكفر بالله تعالى وبه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - بل قتاله لصدهم غيرَهم عن أن يصغوا إلى الدعوة،ويقرروا بعد إصغاءٍ وتفكر أمرَهم متخذين لأنفسِهم بأنْفسِهم قرارهم شأنهم غمّاأن يغرضوا مسالمين وإما أن يَقبلوا ويقبلوا، فيكون لهم ما للمسلمين من قبلِهم،وعلَيْهم ما علَى المسلِمين مِن قِبَلِهم.

فمن النَّصِيحة لِسنةِ رَسُولِ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - ولعامة الناسِ أن نستقرئَ ما جاء من هديه في شأن من لم يؤمنوا به ، فنتدارسَه لنستنبطَ كعالمَ الرحمةِ في ما جاء به فِي شأنِهم ، فاستنباط ذلك وإبرازه للناس إنما هوخدمةٌ لسنته من جهةٍ،وخدمة لمن آمنَ به، ولمن لم يؤمن بِه. ذلك أن غيرَ قليلٍ ممن لم يؤمنوا ب+نولا سيّما في عصرنما هذا من أنه لم يبلغهم النبأ الصحيح الصريح عن رحمته بهم. وذلك تقصيرٌ بالغٌ منا نجحن الذينم 'منوا بِه ، ولا سيّماأهلُ العلمِ منهم،ولا سيما علماء البيان ، فإنهم الأقدرُ على اسْتخلاصَ معالِم الرحمةِ العامة الشاكلة المحيطة بالعالمين جميعًا.

والله سُبْحانَهُ وَبِحَمْدِه يقُول : (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)[الزُّخرُف: ٤٣ - ٤٤] ([١])

قتال الذين يصدون عنْ سبيلِ الله تعالى إنما هوحماية لحقّ الآخرين أن يسمعوا دعوةَ الحق ، فمن شاء فليؤمن، ومن شاءَ فليكفر مادام مسالمًا، وأمرُه – حينئذ - إلى الله تعالى .

[١]) قوله تعالى « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ » أيْ شرفٌ لك ولقومك الذين نزلَ القرآن بلسانهم، فما من أحدٍ يسلم إلا وكان عليْه أن يتعلّم من لسان العربية ما يصِح به إسلامه وعبادته، وهذا ما ليس لقومٍ ولسانهم بتّةً.

وقوله :« وَسَوْفَ تُسْأَلُون » أيْ سيسألُ من آمن به منكم ، ومَن لم يؤمن به عمّا كان منه في شأن النصِيحةِ لِهذا الكتاب . أهوالمكتفِي بأن آمن به أمْ أنّه اجتهد في أن يجعل الأقوام الأخر عالمين به قادرين على قراءته باللسان الذي نزل به، فحق على كلّ عربيّ مسلمٍ أن يكونَ فِي عَون من كانَ مسلمًا غيرَ عربيّ : أن يعلمه قراءته بلسان عربيّ مبين ، ولا يكتفِي بترجمة معانيه إلى اللغة الأعجمية التي يتكلّم بها ذلك المسلم غيرُ العربيّ. فالمسؤولية علينا جد ثقيلةٍ فأين تذهبون؟

***

الكُليّةُ الثّانية):

وَمِن مَقاصدِنا أنْ نكونَ سببًا في تحقيقِ حِصْنٍ تَعتَصِمُ به كلُّ مسلمة مِن عادِياتِ أفاعيلِ سَحرةِ إبليس السّاعيةِ إلى تَبْتير العلاقة بيْن المرأةِ المُسلِمةِ وسيّدنا رسُول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - بتصوير بيانه على أنّه بيانٌ ذكوريٌ منافرٌ المرأة، بيانٌ يصوّرها معيقةً ومفسِدةً حركة الحياة ، مُتّخذين ممّا رواه الشّيخان من قوله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - « مَا تَرَكْتُ بَعْدِى فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » .

ومّا رواه مسلمٌ من قوله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِى صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبِرُ فِى صُورَةِ شَيْطَانٍ ... » ونحو ذلك ذريعةً إلى أن يَنعقوا أن نبيّ الإسلام يشوه صورة المرأة، ويحرّضُ عليْها الرّجالَ .

ويَجد نعيبهم ونعيقهم آذانَ غير قليل من المسلمات مصغيةً له ، فيتخذن موقفًا مُناوئًا لهديه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، مما يكون له أثرٌ قميئ على الحياةِ، ولا سيما حياة من يتولَيْنَ تربيته من الفتياتِ.

الكلية الثالثة) :

من مقاصدنا أن نأخذ بيد مَن أصغت وفكّرت إلى أن ترَى حقيقةَ حالِها عند رسول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - وكيف أنّه صلّى

ومَنْ كان غير مؤمنٍ به من العربِ سيسألُ لمَ لمْ يؤمنْ به، وهو يعلم قراءته ويعقلُ معانيهِ ليس في القرآن ما يُمكن أن يُرتابَ فيه أو يكون مُعمّى عليْه فهمه .

{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[الدخان:٥٨]

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}[القمر:١٧]

كان بها رؤوفًا رَحيمًا كما هو شأنه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ - مع كلّ مؤمنٍ .

ويعقل الذي يقُول فيه خالقه(إنك لعلى خلق عظيم) مناوئًا للمرأة ،وهو الرؤوف الرحيم؟ وهو الّذي أرسله خالقه رحمةً للعالمين كلّ العالمين.؟

فإذا لم يتحقّق لها من مدارسة بيانِه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ - في شأنِها قدر ما هو مُحتفٍ بها مسلمةً صَانعةً للرجالِ ، فإن عليْها أن نعيد النَّظر في نفسِها وعقلها وفؤادها فإنّ فيها من العطبُ ما يستوجبُ مزيدًا من الاعتناءِ بتطهيرها من كلّ مفسِدةٍ وتحصينها من كلّ عاديةٍ .

«إنّ لنفسِك عليْك حقًا» (أبو داود: التطوع)([1])

« كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ ».(أبو داود:الزكاة) ([2])

---

[1]) قوْله ﷺ - «إنّ لنفسِك عليْك حقًا»عامّ محيطٌ بكلّ ما يحقق القيّومية عليها :
حمايةً لها من كلّ ما يفسدها أو يعيقها عن أداءِ رسالتها أو عن ترقّيها من طور الأمارةِ بالسوءِ إلى طور اللوامةِ إلى طور المطمئنة بذكْر الله تعالى والإقامة في رياضِ القنوتِ له ، وحماية لها من كلّ ما يشغلُها بما لا ينفعها .
ورعاية لَها بما يُنكّيها ويثوّرها ، فتكونُ على ما يرضِي خالقها عنها.
وهذا يستوجبُ على صَاحبها العرفان بها ، فإن أهلَ الحِكمة يقُولون : " مَنْ عرَفَ نفسَه عرفَ ربه" وهذا صحيحٌ في مَنطقِ العقل الفطريّ ، ومنطقِ الواقِع المشهود ، لا لأن نفسَه ربّه، بلْ لأنّ مَن عرَفَ ما في المخلوقِ من آياتٍ دالةٍ على خالقه عليمًا قديرًا حكيمًا عزيزًا عرف الله تعالى ؛ لأنّه هو الذي خَلقها على هذا النّهج الذي أودع فيها آيات وحدانيته، وأنّه ليس كمثله شيْءٌ وهو السميعُ البصيرُ .
أمّامن زعم ضلالةً انّ نفسَه ربّه (أيْ مربيتّه) ، فمن عرفها عرف ربّه: (مربّيه) فذلِك هُو الشِرك المحضُ والله سبحانه وتعالى هو المُستعاذ به من كلّ ما لا يُرضيه، ومن كل ما يشغلنا عن القنوتِ له إيمانًا واحتسَابًا.

[2]) قوْله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ » يدخلُ في من تقُوت نفسُك وعقلك وقلبك وروحك .

*****

مدارسة سمات بيانِه ﷺ في شأن المرأة وسيلةٌ إلى غاية عُظمَى جدير السّعي إلى تحقيقها وأن يبذلَ فيها ما يُمكن بذلُه من العمُرِ والجُهد ، والانقطاع عن زهرة متاعِ الحياةِ الدنيا.

وتحقيقُ تِلك المقاصِد سبيله حسْن البصر بمذهبه ﷺ في الإفهام وتقرير المعاني الْحسْنى في الأفئدة ، وتفعيلها ليكونَ له سلطان على المرء في قولِه وفعله وحالِه ظاهرًا وباطنا.

وإذا ما كان لكلّ شاعرٍ مذهبُه في الرؤية الشّعرية للأشياءِ وفي تصويرهذه الرّؤية فليس من شك في أن لسيّدنا رسُول الله ﷺ مذهبُه في تصوير المعانى الحسْنى الموحاةِ إليْه من ربّه تعالى ،وهو مذهَبٌ فريدٌ اقتضته أمورٌ عدة:

- اقتضاه ما يستمدّ منه .
- واقتضاه ما يُعربُ له .
- واقتضاه المَحمول المعرفي
- واقتضاه المقصد من القول ثم سياقُ القول الحضوري

أنت مسؤولٌ أن تحقق لها قوتها زكيًا وفيرًا، وما قوتها إلا من شيْئيْن متلازميْن :

الأوّل) : العلمُ الصحيحُ الصريحُ الوثيقُ المُستمدّ من الكتابِ والسنة بطريقٍ قويمٍ

والآخر): العملُ به خالصًا لله ربّ العالمين .

فمن لم يوفر لهذِهِ الأربعةِ ذلك القوت كفي به إثما يستوجب له سوء العُقبى يوم القيامة.

وقوت هذه الأربعة مقدمةٌ العانيةُ به على العنايةِ بقوت جسدك، فإنك إن عُنيت بتحقيقِ قوتِ هذه الأربعة كان لك من ذلك يُسر تحقيق السعي إلى قوتِ جسدك، فإنّه سَيسْعَى إليْك حينذاك من قبلِ أن تَسْعَى إليه، وإنك لتجدُ في السّعي إليه لذةً في مِن جنسِ سعيك في سبيلِ اللهِ تعالَى، فلا يؤلمك تعبٌ ولا وصبٌ . تستحيل به الأوجاعُ والأوصابُ عذبًا لا عذابا.

كلّ ذلك له أثر بالغٌ في معالم مذهبِه في الإبانةِ وسماتُه وذلك هو المحور الثّالي من القول إنْ شَاء الله تعالى.

المحورُ الثَّانِي

مفهوم
سَماتِ بلاغة بيانِه النَّبويّ ﷺ ومناطها

قُوْلنا " سِماتٌ" جمْعُ" سِمَةٍ" وهي واوية "الفاء":"وَسَم" ويترتُّب على بعضِ الوَسْم سَمُو " علا" أيّ تميّز. فالعلاقةُ بيْن "وسَم" و" سَمُو" وثيقةٌ ، تترتّب الثّانيةُ على الأولَى.

وما يَتولّدُ من هذِهِ الْمادّة "وَسَمَ" مِن كَلِمٍ يدور ُعلى سِنْخٍ واحدٍ هو "الأثَرُ والمَعْلَم"

والله - عَزّ وجلّ - يقُول في شأن الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ على ما عليْهِ بعضُ أهلِ الْعلم: {سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ}[القلم:١٦] مِن أنّه الّذِي افترَى القولَ علَى القُرآن « إنّه أساطيرُ الأوّلين» فتُذُولَتْ عَنْهُ .

وفِي قولِه تعالَى: (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُوم) من الإهانة ما فيه ، واختير الخرطوم (الأنف) من أنّه في الوجه، ومن أنّه أعلى ما في الوجهِ ، فيكونُ الوسْمُ بالغَ الظُّهور، لا يَخفَى على ذي عيْنٍ.

فالسّمَة هي العلامةُ التي تميّز الشّيْءَ، وتَعصِمُهُ مِن أنّ يَخْتلِطَ بِغيره وأنْ يَختلِط به غيره ، فيَتأتّي لمَن علمَها أن يميزّه عمّا عداه.

ومن جليلِ قدرةِ اللهِ ﷻ أن جعلَ لكلّ مخلوقٍ سمةً تُميّزه عَن كلّ مَا عداه ، فليس في الخلائق شيئان مُتطابقان لا سبيلَ إلى تَمْييزِ أحدِهما عَن الآخَر بتّةً ، وهذا منْ جليلِ قدرتِه وجميلِ فضلِه ﷻ أن جعلَ لكلّ قيمةً في ذاتِه ، وأنّه ليس نسخةً من غيره يُمكن أن يُغنِي غيْرُه عَنه ، فشُعورُ المرءِ بأنّ

في النَّاس من يُغني عَنه شعورٌ بالغُ الإيلامِ ، من أنَّه يُحبطُ فاعليَّته في الحياةِ ، وهذا ممَّا لا يُطيقُه ذو عزّة ، ومِن أنكَى العقابِ غيرِ الحِسيِّ أن تُهمِلَ إنسَانا ، فتجعلَه كأنَّه لم يُخلقْ .

ومِن هُنا نفهَم وجهًا من الإنعامِ والإحسانِ في ما رواه الشَّيخان بسندَيهما عَن عَبْدِ اللهِ بْنَ عُمَرَ - رَضِي اللهُ عنهما - يَقُولُ :

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِى أَهْلِهِ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِى بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِى مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ - قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ - وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِى مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » . ([1])

وهذا يَستوجِبُ على كلِّ واحدٍ أن يَجتهدَ فِي أن يَتعرّفَ علَى السِّمَةِ التي امْتازَه الله تعالى بها جِسيّةً أوْ مَعنويّةً ، فإنْ كانَتْ سِمَةً حُسنَى كان عليْه

---

[1]) تبصّر كيف جعل الخادم ، وفي رواية" العبد" ذا مسؤولية من جنسِ مسؤولية الآخرين، فجعل الجميعَ من "الإمام" إلى" العبد " ممن لا يُستغنى عنه ، وأن كلًا ركنٌ من أركان الحياةِ القويمةِ .

هذا وجه من وجوه المعنى يُسَامي معه ما فيه من تحذير ووعيد على من يقصّر في القيامِ بالمسؤولية المختصّ بالقيام عليها . ففيه وجهان: وجه منةٍ تس‍توجب الشكر العقدي والعمليّ

ووجه تحذيرٍ يستوجبُ المسارعة إلى الإنفاذِ المُخلص المتْقن .

وفي هذا ايضًا حثٌّ على أن يَحرصَ الوالدان على أن يجعلا لكل واحدٍ مُمَيّزٍ من الأسرة ذا مسؤولية عن شيْءٍ مُعيّن، ويكونا أيضًا معينًا غيرَه على إداءِ مسؤوليته ، فينشأ جيلٌ ذو خبرةٍ ومهارة في تحمّل المسؤوليةِ والوفاءِ بحقّها احتسابًا لا امتنانًا.

أن يكونَ عليْها قيِّمًا يَحميها من العاديات ، وَيَرْعاها بما يستفحلُها ، وأن يَستثْمرَها فيما يَنفعُه وينفعُ قُومَه ووطنَه ، ففِي الاسْتثمار من الإذكاءِ ما فيه.

وحَقٌ علَى الوالدَين خاصّة أن يكُونا أحْرَصَ ما يكونان على استبصَار سِمَة كلِّ ولدٍ مِن أولادِهما ، ولا سِيّما السِّماتُ المَعنويّةُ الحُسنَى ؛ لِرعيتِها، وحمايتِها، واستثمارها فِي ما يتزلّفُ بهِ إلى ربّه تعالَى الّذي اختصّه بها ﷻ

وكذلك الأمرُ لطلّابِ العلمِ وَطالباتِه علَى مَن يتولّى القيّموية العقليّة والأخلاقيّةَ أن يكونوا أبصَرَ بسماتِهم الحُسْنى ، فلا يَدَعُ منْها سِمةً إلّا زَكّتْ وَنَكّتْ واستُثْمِرَتْ .

وأمّا السِّماتُ المَعنويّة السّوءَى ، فحقٌ علَى مَن ابتليَ بها أن يَعمَل علَى التّخلّصِ منها بالحكمةِ ، أوْ أن يَسْعَى إلى إضْعافِها ، وأن يخميَها ممّا يُمكِن أن يستفْحلَها.

وممّا جعلَ الله - تعالى - لكُل واحدٍ منْ بني آدَمَ - عَلَيْهِ السّلام - سِمةً فريدةً فيه البيانُ عَمّا هو مكنوزٌ في الجَنانِ ، فلَيس ثَمّ أحدٌ هو الآخَر فِي هذا ، وإنْ قلّده ، فلكلّ مِنّا سِمَتُهُ فِي بيانِه سواءٌ كان فِي مَحْمُولِ هذا البيانِ أوْ في صُورتِه أوفِي أدائه الصّوتِيّ أو الْكتابِيّ .فكما جعل لكلّ ما يُسمّى بـ« البَصْمةِ الصوتية» جعل له «بَصمة خطيةً» لا يلْتقِي معَه غيرُه من بنِي آدمَ وإنْ بالغَ فِي تقليدِهِ ، وهذا مِن آياتِ قدرتِه الدالةِ على وحدانيتِه واقتداره وعزّتِه ﷻ

{وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ(٢١)
}[الذاريات][(1)]

وحَقٌ على كُلِّ ذي بيانٍ أن يَستبصِرَ معالِم هذه السِّماتِ في بيانِه ، وأن يَسبُر غورَها ؛ ليتبيّن له منها ما هو إلى الْحُسْنى ، وما هو إلى غيْرِها قبل أن يَسبُر بيانَ الآخرين.[(2)]

تلك حقيقةٌ بيّنةٌ لا سبيلَ إلى أحدٍ أنْ يَتوقّف فِي التّسْليم به فضلًا عنْ أنْ يُنكرَها أوْ يُصادِمها.

•••••

وكلمةُ «البيان»هنا مُتسِعة غيرُ محصورةٍ في فعلِ اللّسان ، فليسَ اللّسانُ إلّا أداةً من أدواتِ الإبانةِ الّتِي يستعملُها الإنسانُ ، وكذلِك ليس "البيانُ"

---

[1]) لعله من العقوقِ للذاتِ أن يَغفُلَ المرء عن أن يستبصر آيات الله تعالى الدالة على أنه ليس كمثله شيءٍ، ثم يسعى إلى أن يبحث عن هذه الأيات فيما هو خارج عنه ، وحقه أن يُقيم قول سيدنا رسولِ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - : « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا فَإِنْ فَضَلَ شَىْءٌ فَلأَهْلِكَ فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَىْءٌ فَلِذِى قَرَابَتِكَ فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِى قَرَابَتِكَ شَىْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا ». يَقُولُ فَبَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ.(مسلم: الزكاة) قوله ﷺ هذا لا يُحصر في ما جاء في سياقِ الورود، ولكن يمكن أن يفهم بطريقِ "الإشارة" أنه يجري في كل أمرٍ من إقامةِ معروفٍ, وتهديم منكر.

[2]) مدارسة طالبِ العلم بيانَه هو، واستبصار سِماته الحُسنى، وغيرها لا ليتفاخر، بل ليؤدّي حقّ الله تعالى أولًا بنصِيح الشكر العقديّ والعملي، وليؤدّي حق نفسِه ثم حقّ مجتمعه عليه ، بتذكية ما كان حسنًا منها ونفعيله ، وبتطهّره ممّا ليس حسنًا، ومعرفة أسباب كلّ .

فالأسمَى في مناهج تربية طلابِ العلم عامة، وطلاب علم البيان خاصة أن يكلفوا بأن يرقنوا مقالاتٍ في موضوعاتٍ عدة، وأن يقموا هم بمدارسة ما كتبوا وبنقده، وبتبيين أسبابِ كلّ من الحسن وغيره، وكيفية علاج ما ليس بالحسَن. ثم يمارسُ ذلك مع قرينه وهكذا فذلك أنجعُ وأرفعُ وأمتعُ إنْ شاءَ اللهُ تعالَى.

مُنحصِرًا في ما يُبانُ بِه مِن قولٍ وغيرِه ، بل هُو شاملٌ ما يُبانُ عَنه. بلْ هُو أولَى بالنَّظرِ وأحقُّ بالتَّقديم في مُدارسةِ بيانِ كلِّ مُبين ، ذلك أنَّ ما يُبانُ عنه مِنْ صَنيعِ الفؤادِ الرَّشيدِ هُو الَّذي يَختارُ ما يُبانُ بِه عَنه ، فالمُبينُ الحقّ غيرُ المتكلّف، وغير المُقلِّدِ ما يُبين عَنه هو الَّذي يختارُ ما يُبانُ بِه عَنه ، وهذا أمرٌ قرَّرَه أهلُ العلم ، ومِن أبْرَزِهِم فِي هذا ، وأكثرِهِم تقريرًا له الإمامُ عبد القاهر الجرجانيّ(ت: ٤٧١هـ) ، وهو يَستمِدُّ هذا مِن عَطاء سلفِه من أعيانِ أهلِ العلم.

يقُولُ في سفره الفريد في بابِه:«دلائل الإعجاز » ([1]):

« واعْلمْ أنَّ مِنْ سبيلِك أن تُعتمِدَ هذا الفصْلَ حَدّاً، وتجْعلَ النُّكَتَ الَّتي ذكرتُها فيه علَى ذُكْرٍ منكَ أبدًا، فإنّها عُمُدٌ وأُصولٌ في هذا البابِ ، إذا أنتَ مكَّنْتَها في نفْسِك، وجدْتَ الشُّبَهَ تنزاحُ عَنك، والشُّكوكَ تنْتفي عن قلْبك ([2]) ولا سِيَّما ما ذكرْتُ مِنْ أنَّهُ

---

[1]) دلائل الإعجاز .تأليف عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليْهِ محمود شاكر ،الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة ،الطبعة: الثالثة عام: ١٤١٣هـ. ص:٥٣ – ٥٤ (فقرة : ٤٧)

[2]) هلْ لك أن تتلبث ؛ لتتبصر إسناده الفعل «تنزاح» إلى الشبه ، و«تنتفي» إلى الشكوك ،وكأنها هي التي تفر منك، ولست أنت الذي تتعتصم منها. وذلك إبلاغ في قوة أثر استحضار هذه الحقيقة عن فهمٍ محكم.

وهذا من سبل عبد القاهر في تقرير معانيه من جهة، وفي تحفيز القارئ إلى أن يستفرغ جُهده في تلقِّي ما يحدثه عنه. وذلك خدمَةٌ لمعانيه ومذهبه، وخدمة للقارئ الذي هو بمثابة ضيفه ، فيقابله بما قابل به أبونا إبراهيم - عَلَيْهِ الصلاة والسّلامُ – ضيفانه

(فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ}[هود:٦٩] ، {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ}[الذاريات:٢٦]

(أ) = لا يُتَصوَّر أنْ تُعرفَ للفظ موضِعًا من غيرِ أن تَعْرف معناه، ولا أنْ تتوخَّى في الألفاظِ من حيثُ هي ألفاظٌ ترتيباً ونظماً.

(ب) = وأنَّك تتوخَّى التَّرتيبَ في المعاني وتُعْمِل الفكْرَ هناك، فإذا تمَّ لك ذلك أتْبَعْتَها الألفاظَ وقفَوْتَ بها آثارَها.

(ت) = وأنَّك إذا فرَغْتَ من ترتيبِ المعاني في نفسِك، لم تحتجْ إلى أن تستأنفَ فكْراً في ترتيبِ الألفاظِ، بل تَجدُها تترتَّب لك بحُكْم أنها خَدَمٌ للمعاني، وتابعةٌ لها، ولاحِقةٌ بها.

(ث) = وأن العِلْم بمواقعِ المعانِي فِي النَّفْس ، علمٌ بمواقعِ الألفاظ الدَّالة عليها في النّطق.» ([1])

---

[1]) هذه كليّةٌ منهجيةٌ عمدَ عبدُ القاهر إلى تصريفِ البيان عنه عمودها ،أورد ه في أربع صورٍ لتتمكَّنَ تِلك الحقيقة في وعيك ، ولتجعل تحقق ذلك العمود في بيان أيِّ مُبِينٍ هو المعيار الذي يقضي به للمُبين إن حسينا، أوْ يُقضَى علَيْهِ إن كان مسيئًا.

عمودُ القولِ في هذه الكليّة المنهجية وجُمُعته أنَّ « الصَّنعةَ » إنّما تكونُ فِي المَعنى، وأن صورتَه مَبنيَّة علَى «الطَّبع » ، فعبد القاهر لا يقولُ بالطّبع المُطلق ،ولا بالصّنعة المطلقة :

يجعلُ «الصَّنعة» فِي المعاني أي في مرحلةِ " التصور" و«الطبع» في مرحى التّصوير، و«التكلف» إنما يذم حين ينقل المُبين «الصنعةَ» إلى مرحلة" التصْوير"

وهذا يقضِي بأن على المُبينِ أن يقضِي جهده ووقته في اصطناعِ المعاني ، وهذا لا يأتي إلا من تحصِيل قدرٍ وفيرٍ من المعلوماتِ سواء كانت عن طريقِ المشاهدة لما في الكونِ من آياتٍ ووقائع، ونحو ذلك مشاهدة تَعْبُرُ مِن الظّاهر إلى الباطن ، تُبْصِرُ العُنْصرَ المؤلِّفَ المُؤانِسَ بيْن الأشياءِ بلْ المُوجِدَها آيةً دالَّة على خالقِها - سُبْحانَهُ وَبِحمْدِهِ – أوْ عَنْ طَريقِ المُحاورةِ بيْنه وبيْن شَيْخٍ خِرِّيت أوْ قرينٍ نَصوح أو كتابٍ مُحيطٍ ، ونحو ذلك ، والتّفكُّر المتغوّر المُحيطُ الحكيمُ فِي ذلِكَ كلِّهِ ، فإذا ما نَضُجَ حَملُ ذلك جاءت لَحظة المَخاض .

•••••

ولمّا كان القصد إلى السِمات البلاغيّةِ في بيانه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - كان حقًّا أن تستحضرَ حقيقة " البلاغة" وجوهرَها ؛ ذلك أن سماتِ كل شيءٍ إنما تستمدُّ مِنْ حقيقتِه وجوهره، فمن جهل حقيقةَ شيءٍ لا يتأتّى له أن يتبيّن له سِماته المائزة له عن غيره.

وأهلُ العِلمِ بالبلاغةِ قد حَرَصُوا علَى تَبيين حقيقةِ «البَلاغةِ» ولَعلّ ثلاثةً فِي أزمانٍ مُتباعِدةٍ هُم عِندِي أوْلَى مَنْ نَتَلَبَّثُ مُستبَصِرينَ مَقالاتِهم فِي تَبيينِ حقِيقةِ «البلاغةِ»

يقُولُ أبُوالحسن الرُّمانِيّ (ت: ٣٧٦هـ) ([1]):

« وإنّما البَلاغةُ إيصالُ المَعْنَى إلَى القَلْبِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ مِن اللفظِ.»([2])

وحينذاك تكونُ بالغة اليُسر ، كَمَا هُو الشّأنُ في كُلِّ وليدٍ تَمَّ خلقه فِي رحِمِ أمّه واستوفى حقَّه ، فإن مخرجه يكونُ جدَّ يسيرٍ .

[1]) النُّكت في إعجاز القرآن. تأاليف أبي الحسَن الرّماني : عَليّ بن عِيسَى بن عَلي الرمانيّ (ت/ ٣٨٤هـ) تحقيق: محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام ، نشر ضمن كتاب " ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: نخائر العرب] - دار المعارف بمصر .الطبعة: الثالثة عام: ٧٦٩١ م ص:٧٥ -٧٦

[2]) أورد الرّمانيّ هذا التعريف من بعد أن سلك سبيلَ التخليةِ ، فقرر أن البلاغة ليست كذا ، وليست كذا، أتى على ما كان جاريًا في بعضِ المناخات، فنفى أن تكونَ البلاغةُ كذلك، ثم عمد من بعدِ أن طهر الأفئدة ممّا لم يسترضِ من قولٍ في حقيقَةِ البَلاغة وجوهرها ، فأورد رؤيته حقيقتَها وجوهرَها، واستفتحَ بيانه بقوله «إنّما» إيماءً إلى أنَّ ما هو أتيك به بعد ليس أهلًا لأن يتوقف فيه فضلًا عن أن يتردّد فضلًا عن يدفع ، فهو حقيقٌ بأن يسلَّم ،ويُحمل ، لأنه حقٌّ مكينٌ

وهذا نهجٌ في تقرير المعاني، وتمكينها تخلية ثم تحلية ودعوى أن الّذي قيل هو الحقُّ الذِي لا يليقُ بعقيلٍ أن يتوقّف في أخذه . ذلك نهجٌ يَقضِي به منطقُ العقلِ الفطريّ.

التفتَ الرّمانِيُّ إلى ثَمَرةِ الفِعل البلاغِي ، مِنْ أنَّ قيمةَ الأفعالِ بآثارِها ، لا بذواتِها، ومُكوناتِها.

وهذا ملحظٌ حميدٌ فيه طلاقة يَهدِي إلى أنّ كلّ ما يُحقّق منك هذِه الثّمرةَ هُو مِن البلاغةِ، فانظرْ أوّلا فِي الثّمرةِ ، ثُمّ انظرْ بَعدُ فِي ما حقّقَ هذه الثّمرةَ، ولذا جُعل تعريفَ البلاغةِ مِن شِقيْن:

الأوّل: إيصالُ المَعْنَى إلَى القَلْبِ .

والآخر: فِي أحْسَنِ صُورَةٍ مِن اللّفظِ .

لَم يَلتفتْ إلى ما يُحقّق الثّمرةَ أوّلا، بل الْتَفتَ إلى تَحقّقِ الثّمرةِ . فإنْ تحقّقتْ الْتَفتَ إلَى ما كان بِه التّحقّقُ .

في قولِه " إيصالُ المَعنَى إلى القلبِ" لفتٌ إلى مَبدأ الثّمرةِ "الإيصال إلى القلب " لا إلى الأذنِ وحدها ، وكأنّه يُومِئُ إلى أنّ الأصلَ أنّه متَى تحقّق الإيصالُ إلى القلبِ فإنّ الفؤادَ الرّشيدَ لا يَستَنيمُ ، فإنّه لا مَحالةَ فاعلٌ فِي مَا وَصَلَ إليْه وفاءً بحقِّ هذا الوافِدِ، وحقُّهُ أن يُستَبصَرَ، وهذا يعنِي أن ما يترتَّب علَى الإيصالِ من الاستبصار ومَا إليْهِ متحقّقٌ لا محالةَ ، ويترتّبُ علَى الاستبْصَار تمكينُه فِي القلبِ ، ثُمّ تفعيلُه ، فكمالَ العِبارةِ : إيصالُ المَعنى إلى القلبِ وتمكينُه فيه وتفعيلُه .

ولو كان قال" البلاغةُ تَمكِينُ المَعنَى في القلبِ لَفُهِمَ سِياقُه :(الإيصالُ) ضِمنًا، ذلك أنّه لا يُمكِنُ أن يَكونَ تَمكِينٌ إلّا إذا كان إيصَالٌ كَميلٌ فتيٌّ ، وإذا ما كان تمكينٌ ، فإنّه لا بُدّ أن يُحقّق تفعيلًا للمَعنى فيبعثُ على تحقيق

مرادِ البليغِ مِن بَعْثٍ إلَى حقٍّ وخيرٍ أو محاجزةٍ عن باطلٍ وشرّ ، وإلّا لَما كانَ مُمْكِنًا.([1])

وقولُه : « فِي أحسَنِ صُورةٍ من اللفظِ» قولٌ دقيقٌ : قولُه : (أحسن صورة) يومِئُ إلى أنّ هنالِك صورًا أُخَر كلٌّ ذاتُ حسنٍ إلّا أنّها مُتفاوتَةٌ ، فحقّ عليْه أن يَصطفِي احْسَنَها.

وهذا يَستوجِبُ أن يكونَ المُبينُ مليكًا لِكلِمٍ كثيرةٍ متقاربةٍ فِي الدّلالةِ علَى المَعنَى، ومَليكًا لأنماطٍ تركيبيّةٍ عِدةٍ كلٌّ مقتدرٍ على أن يَحمِلَ إليْك مرادَ المُبين إلّا أنّها تتفاوتُ فِي ذلك، ثُمّ يكونُ مقتدِرًا علَى أنْ يَعلَم مُتطلّباتِ " المَعنَى "واستحقاقاتِ السّياقِ والحالِ ، فيَصطفِي مِن الكَلِم والتّراكِيب وعلاقاتِ التّراكِيبِ ببَعْضِها مَا هُو الأَحْسَنُ.

هذا كما ترَى استحقاقَاتٌ ثقيلةٌ لا يُطيقُها كلّ ناطقٍ ، وهُو بالضّرورة مُستوجِبٌ أن يكونَ متلقّي هذا البيانِ وناقدُه عليمًا بِذلِك عَلمَ المُبينِ بِها، فإذا

---

[1]) أشِيرُ بقولي " فيبعثُ على تحقيق مرادِ البليغ..." إلَى أنّ الملامَ لا يكونُ مستحقًّا شرَف النّعتِ بالبلاغةِ إلّا إذا كان من شأنِه أن يتحقّقَ به شَيْءٌ مِن الأمريْن ، فلا يكونُ مانعٌ من التّحقّق من قبلِه، وإنْ تحقّق المانع من متلقّيه.

قلت ذلك ، كيما لا يقال : أوَ لا تَرَى أنَّ القرآنَ وبيان النّبوة على كَمال البلاغة، وقد لا يَتحقّق منهما انبعاثُ السّامعِ إلى خير أو محاجزة عن شرّ. القرآنُ وبيان النبوّة منْ شأنِهما إذا تلقّاهما سميعٌ فهيمٌ ، وليس مُجرّدَ سامعٍ أن ينبعثَ إلى صناعة حقٍ وخير أو محاجزةٍ عن باطلٍ وشرّ .

فحظ البلاغةِ كما استَحسَنه " الجاحظُ" في " البيان والتبيين" من قول الحفيدِ العبّاسيّ :« أن لا يُؤتَى السّامِعُ مِن سوءِ إفهامِ النّاطِقِ، ولا يُؤتَى النّاطِق مِن سوءِ فهم السّامِع"

(البيان والتبيين " تأليف أبي عصمان الجاحظ ,تحقيق عبد السلام محمد هارون – نشر الخانجي (ص:٨٧) وهذا بين أننا كما نشترطُ بلاغةَ المُتكلّم المُبينِ المُفْهِم ،ونشترطُ بلاغةَ السّامِعِ المُتلقّي المُتفهّم.

لمْ يَكُن المُتلقِي أو النَّاقدُ علَى وزانِ المُبينِ فِي هذا ، فإنّ الإيصالَ والتَّواصُلَ لَن يكونَ علَى تَمامِه مِمَّا يَجعلُ البيانَ عاجزًا عَن أداءِ رسالتِهِ . فيكونُ البيانُ قد أُتِيَ مِن قِبَلِ سامِعِهِ .

وقولُه (في أحسن صُورةٍ) أعلَى مِن قولنا (بأحسنِ صُورةٍ) ذلك أنَّ(فِي) دالّ علَى الاحتواءِ والإحاطةِ،بيْنا (الباء) دالّةٌ علَى المُلاصقَة والمصَاحبةِ ، فَرْقٌ بيْن الإحاطةِ والمُصَاحبةِ لا يَخفَى علَى مِثْلِك.

وقوله (من اللفظ) "كم" بيانية" ولا يريد من اللفظ " الملفوظ" :(كَلِمُ الصورة وتكوينها جملًا وما فوقها " فحسبُ بل يضاف إلى ذلك أدوؤها : تفلظها، ف،"اللفظ" هنا جماع بين الملفوظِ والتلفظ، فحق البيان أن يؤدَى صوتًا وكتابةً أداءًا حسينًا سنشرحُ الصور لا ستماعه .

روى أبو داود في كتاب " الوَتر" من سننه بسنده عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ ».(رقم: ١٤٧٠) أيْ زينوه في أسماع وأفئدة السامعين بحسن ترتيله كا يناسِبُ جلاله وجامله .

إنَّ لترتيله قدسيّةً تأبَى أن يتغنى به كما يتغنّى الفسقة على نحو ما تراه في زماننا ممّن لا يحفظونَ للقرآن قدسيته ، ولا لأنفسهم وقارها [1] عبارةُ " الرُّمانِيّ" دقيقة ، ولَو عبَّر بقوله (تَمكِين المَعنَى) بدَلًا من (إيصال) لكان أعلَى دقّةً.

---

[1]) من يستمع إلى مثلهم أو يحضر مجالسهم هو شريكهم في هذا الفسوق ، فكيف بمن يبذل لهم أموالًا يضن بمعشارها على اليتامى الفقراء ؟!!!

وَما قالَهُ الرّمّانيّ صَرَّفَ البيانَ عنْه عَصْرِيّهُ أبو هلالٍ العسكريُّ (ت ٣٩٥هـ) قائلًا: « البَلاغَةُ كُلّ ما تُبلّغُ به المَعْنَى قَلْبَ السَّامِعِ، فَتُمكّنُه فِى نَفسِهِ ، كَتَمَكُّنِهِ فِى نَفْسِكَ مَعَ صُورَةٍ مَقْبولَةٍ ومَعْرِض حَسَنٍ. » ([1])

عبارو " العَسْكريِ": « كُلّ ما تُبلّغُ بِه المَعْنَى » عِبارةٌ جامعةٌ يدخلُ فيها الأداء الصوتي للبيان الشفهيّ، والخط "الرسم الكتابي" في الأداء الكتابي، فحقُّ البيانِ البليغِ أنْ يُكتب برسمٍ جميل معبّر لونًا وحجمًا ونوعًا وهكذا كل ما يُمْكِنُك أن تَجعل بيانك متولِّجًا مُتمكِّنا فعيلًا في فؤاد سامعك وقارئك، فأنت المحسنُ إليه، وأنت المحسن رعايته: « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» وأنت بذا المطيع سيّدنا رَسُول الله 9 .

وعبارة الرّماني (في أحسن صورة ...) يمكنك أن تجعل متضمنة كل وسائل الأدء الصوتِي والكِتابيّ .

وَلَو أنّ "العَسكريّ " قال: "« البَلاغَةُ تمكين المَعْنَى فِي قَلْبَ السَّامِعِ ، كَتمكُّنِه في نفسِك في أحسن صورةٍ من اللفظ" لكان ذلك أعلى:

قوله البلاغة :"كلُّ ما..." لا يناسبُ تعريف البلاغة من حيثُ هي فعلٌ وإيجادج، ذلك أن قوله : «البلاغة كل ما...» مشيرٌ إلى ما به تتحقّق البلاغةُ ، وليس البلاغة نفسَها.

---

[1]) كتابُ الصناعتين . تأليف : أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي ، ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، نشر: المكتبة العنصرية – بيروت ، عام النشر: ١٤١٩ هـ . ص: ١٠

وقولُه :" مَع صورةٍ مقبولةٍ ومعرضٍ حسنٍ." أحسَنُ مِنْهُ قول الرّمانِيِّ:" في أحسن صورة ": "في ": (في) قول الرُّمّاني أعْلَى مِن(مع)في قول العسكريّ.

وقول الرّمانيّ :"أحسن" أعلى من قول العسكريّ " صورة مقبولة..." فرقٌ شَسيعٌ بيْن "الأحْسَنِيّة" المقتضية المفاضلة والاختيار الحكيمِ بيْن صورٍ عدّة حسنة والمقبوليّة" .

قد يكونُ الشَّيْءُ مَقبولاً ، وليْس هو الأحسنَ. فالمقبولية درجةٌ أدنَى ، فعبارةُ العسكري ليْست حسنةَ الدّلالة ، ولا تامّتَها.([1])

وإذا ما كانتْ هذِه رُؤيةُ الرّمّانيّ حقيقةُ البلاغةِ الّتي تبعَه فيها العَسكَريُّ مُمثّلةً في ثَمَرتِها، ثُم أداتها ، فإنّ عبدَ القاهر رأى حقيقةَ البلاغةِ تتَمثّلُ فِي خَواصّ دَلالةِ الصُّورة علَى المَعنى أوّلا ، أيْ أنّهُ يَنظُر إلَى العَلاقَة

---

[1]) ألفتك بهذا إلى ألا تكتفي ،وأنت البلاغي ، بأن تحمل فكر العالم فحسبُ ، بل عليْك أن تسبرَ تعبيرَه عنه، فتتعلم منه منهاج التفكير، ومنهاج التعبير، فالأسلوب العلمي الذي تكتب به علوم الإسلامِ وعلومُ آلاتها يحملُ مستوياتٍ من البلاغة ممثلة في دقةِ الأسلوب وتحرره وإحكامِه ، فليست "البلاغة" منحصرةً في طلاقة التّخييل والتهويم، والتوقيع النّغمي ، كالذي في الشعر والنثر الأدبيّ .

مَن قصرَها على ذلك فرؤيته لها واهية . العقلُ البلاغي العربي لا يفرّقُ في هذا بيْن الأسلوب الذي تكتبُ به علوم الإسلام من فقه وعقيدة... وعلوم آلتها، وما يكتبُ بيانُ الإبداعِ شعرًا ونثرًا أدبيًا.

بملْكك أن تكتب دارسة بلاغية محكمة في مناهج الإبانة في كتاب كتاب" الأم" للشافعيّ (ت:٢٠٤هـ) أوْ كتاب "التّلويح" للسعد التفتازاني (ت: ٧٩٢هـ) أو كتاب "الأيمان " لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم(ت: ٢٢٤هـ) فمنهاج الإبانةِ والإعرابِ في مثل هذه الأسفار ذو خواص تركيبية ودلالية، ومنهاج إقناعٍ ومحاجة، النظر البلاغي حقيقٌ أن يُعنى بها.

بيْن الصُورةِ والمَعنى، واشْترطَ ثلاثةَ شُروطٍ لِدَلالةِ الصُورةِ علَى المَعنى :

اشْترَطَ لها الحُسْنَ ، والتَّمامَ ،والتّبرح :الإحْكامَ . يقُولُ:

« وَمِنَ المَعْلومِ أنْ لا مَعنَى لِهذِه العِباراتِ ["البلاغة" و"الفصاحة"، و"البيان"و"البراعة "] ([1]) وسائرِ مَا يَجْري مَجْراها مِمَّا يُفرَدُ فِيهِ الْلفظُ بالنَّعتِ والصِّفةِ، ويُنسَبُ فِيهِ الفَضلُ والمَزِيَّةُ إليْه دَونَ المَعْنَى ([2]) غيرُ

---

[1]) لو أنَّ عبدَ القاهر قال : الفصَاحةُ والبيانُ البلاغةُ والبراعة" لكانت النعوت منسوقة على نهج التصَاعد : البدء بالفصاحة، يتلوها البيان، يتلوها البلاغة ثمّ تكونُ البراعَةُ .
وعبد القاهر هو المدرك ذلك وما فوقه، ولكنه – في ما أفهم - لم يعمد إلى ذاك النسق المتصاعد كي ما لا تحسب أن ما هو قائله بعد متوقفٌ على اجتماعها وتصاعدها ، فيكون شرط ترتبها وتصاعدها شرط صِحةٍ فيما هو ذكره، فوقاك من هذا الفهم بترك التنسق التصاعدي خدمة لك ،وحماية لك من أن تفهم عنه غير مراده، فهو بك رحيم ،ولك حفيظٌ مما يُضيرك ، فاستغفر له. رَضِيَ الله عنه وعمن أحبه.

[2]) يريد بقوله «اللفظ» النّظم ،وليس الكلم منثورةً ، فعبد القاهر مقرر أنّ النظر البلاغي في اللفظ إنما هو من حيث وجوده في بنية تركيبية في سياقٍ وقرائن تهدي إلى ما يحمله من معاني ومقاصد المبين به، فالألفاظ ما وضعتْ لتستعمل فريدةً ، بل لتكون في وضع اجتماعي بالغ التماسك والتآنس يشد بعضه بعضًا.
يقول « آعلم أن ههنا أصْلاً أنتَ ترى الناسَ فيه في صورةٍ مَنْ يَعرفُ مِن جانبٍ ويُنْكِر مِن آخَر، وهو أن الألفاظ المفردة التي هو أوضاع اللغة، لم توضع لِتُعْرفَ معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضَمّ بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما فوائدُ. وهذا علِمٌ شريفٌ، وأصْلٌ عظيم. »(دلائل الإعجاز. قرأه شاكمر . ص: ٥٣٩ - فقرة : ٦٣٤)
هلّا عُدْتَ إلى مقالة شيخنا - عزّه الله تعالى بمحبتهِ - في كتابه «المدخل إلى كتابي عبد القاهر »(ط:٢) ص: ٨٢-٨٣)

وَصْفِ الكلامِ بِحُسْنِ الدّلالةِ وتمامِها فيما لَه كانت دَلالةٌ [1] ثُمّ تَبرُّجُها في صورةٍ هي أَبْهَى وأزْيَنُ وآنَقُ وأَعْجَبُ وأَحقُّ بأنْ تَستَوْليَ على هَوَى النَّفسِ، وتَنالَ الحَظَّ الأوفرَ مِن مَيْلِ القلوبِ، وأولَى بأن تُطْلِقَ لسانَ الحامدِ، وتُطِيلَ رغْمَ الحاسِدِ »[2]

في هذا النّصّ الجُرجانيّ ما هُو الجديرُ بأن تَعتكفَ فيه - بِكُلّ ما تَحمِلُه كَلِمةُ«تَعتكف» من استحقاقاتٍ - مستبْصِرًا متدبرًا، فهو مترعٌ بدقائقِ الحقائقِ .

عَمَدَ إلى نعوتِ الدّلالةِ الّتِي هِي عنصرٌ مِن العناصِرِ الثّلاثةِ المُكوِّنةِ الرّسالةَ الكَلامِيّةَ : الدّالُّ(الصّورة)

والمَدلُول(المَعنَى)

والدّلالة (العلاقة بيْن الصُّورة: الدّال ، والمَعنَى (المَدلول)

عمَد إلى جعلِ بيانِ نُعوتِ الدّرجةِ الْحُسنَى للدّلالة ثلاثةً مُتصاعِدةً يُبنَى ثانِيها على أوّلِها. وجَعل أوّلَها ما لَو فُقِدَ لَم يَكن القولُ أهلاً لأن يُسمَعَ ، ففقدُه يُخرجُه مِن دائرةِ«البيان»

أ) حُسنُ الدّلالةِ

ب) تَمامُ الدّلالةِ

ج) تَبَرُّجُ الدّلالةِ.

---

[1]) قولُه فِيما كانتْ لَه دَلالة" يرجع إلى قوله " حسن" و" تمام" أي في قولٍ له دلالةٌ، والتنكيرُ يفاد منه أنها دلالة على معنى شَريفٍ ،وليس كل قولٍ وإن دلّ على معنى هزيلٍ أو مبتذلٍ أوْ مرغوبٍ عن تلقّيه

[2]) دلائل الإعجاز(م.س) ص:٤٣ (فقرة: ٣٥)

أمّا «حُسْن الدّلالةِ» فيشمل كلّ ما يجعل سبيلَ وصول المعنى إلى القلبِ معبدًا مماطًا عنه الأذى سواء ما يتعلّقُ بكلمِه مادة وصورة وصوتًا ومعنى، وكذلك الجمل ما فوقها، وتحقيقِ صلة أرحام وأنسابِ المعاني بحيثُ تتلاحظ ،وتتنادى وتتآنس فيساوقُ وصولُ أصلِ المعنى إلى عقلِك وصول الالفاظ إلى سمعك ([1])، ليبقى مناط التبصر والتدبر ما تولد من أصل المعنى بالنظم والسياقِ ، فالمعاني التي هِيَ ولائد" أصل المعنى" هو مناط التبصر والتذوق المُتدبر، وهي التي أسميها«المعاني الإحسانية» أي المعاني اللطيفة الطريفة التي تحسنُ إليْك بمقدار إحسانك إليها تبصرًا وتذوقًا متدبرًا، فهي لا تُخلقُ على كثرةِ الرّد ، وهِي لا تَبْخلُ ، ولا تُبْخل، إنْ قام على بابها كلّ عقيلٍ فهيمٍ من بني آدم في آنٍ واحدٍ. ([2])

فلا تحسبَنَّ حسن الدلالة أن يكون البيان مكشوفَ المعنى بحيثُ لا يتفاضل الناس في إدراكه من أنهم يحتاجتَن إلى أن يفكروا ،ولا يغرنك قولهم :

« إنَّ خَيْرَ الكلامِ ما كانَ مَعناه إلَى قلبِك أسْبقَ مِن لِفظِه إلَى سَمْعِك» على حقيقة ظاهره، فإنه لا يمكن أن يكونَ المعنى أقربَ إلى القرب إلا من بعدِ

---

[1]) معدن صلة الأرحام المعاني وأنسابها إنّما هو "أصل المعنى" المتحقّق في أصل التركيب دون عدولٍ عن هذا الأصل ، فإذا ما جاء عدولٌ قويم كان ذلك أزكّى وأذكى لوصل الأرحام ، ففنون النظم القائم على العدول ليستْ هي التي تخلق صلة أرحام المعاني ، بل هي التي ينزكيها، ويُذْكيها،وترفع من أقدارها. فحقّ أن تعرف أصل تخلُّق السمة ، وما يدعمُها بعدُ ويرفعُ مِن قدرها.

[2]) لا يَحلّ لك في شرعة طلب العلم ومطاردته في مفاوزه " أسفارالأعيان" إلا أن تفيء بقلبٍ عقول فهوم إلى ما أسداه إلينا شيخنا أعزه الله بطاعته ومحبته في كتابه النّور : (المَدخَل إلى كتابي عبد القاهر ، ط (٢) عام ١٤٣١هـ) ص: ٨٧ ، ص:٢٢٤، ٢٤٩)

فراغِ السمع من إدراك آخر اللفظ(الصورة) ولكن الكلامِ على المبالغةِ أي أن الدراك القلبِ المعنى من بعد فراغِ السمع من آخر اللفظ لا فاصل بينهما، من شد اتصالهما، فكأنّ كل كلمةٍ بسبب من علاقتها بسباقها ولحاقها تفرغ ما فيها في القلب كما أفرغت أصواتها في السمع، وعبد القاهر لم يدع عبارتهم على ظاهرها، ولكنّه أبان عن مرادهم بذلك في كتابه" أسرارُ البلاغةِ. يقُول: « فإنما أرادوا بقولهم ما كان معناه إلى قلبك أسبقَ من لفظه إلى سمعك، أن يجتهد المتكلم في ترتيب اللفظ وتهذيبه وصيانته من كل ما أخلّ بالدّلالة ، وعاق دون الإبانة، ولم يريدوا أن خير الكلام ما كان غُفْلاً مِثْلَ ما يتراجعه الصبيانُ ويتكلّم به العامّة في السوق. هذا وليس إذا كان الكلامُ في غاية البيان وعلى أبلغ ما يكون من الوُضوح، أغناك ذاك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفاً، فإن المعانيَ الشريفة اللطيفةَ لا بُدَّ فيها من بناءٍ ثانٍ على أوّل، وردِّ تالٍ على سابق» ([1])

ومِن الجليّ الّذي لا يَخفَى أن «حُسن الدلالة» هو أصل البلاغة ، وما بعده من "التّمام" والتبرّج" مترتبٌ عليْه وَلذا كان حقُّه التّقديمَ ، وقد وفاه عبدُ القاهر حقّه.

وقوله «حسن الدّلالة» تخليصٌ لوظيفة" نظريةِ النظم" التي أقام عليْها كتابه " الدلائل" فهي عبارة بالغة الإيجاز.

***

---

[1]) : أسرار البلاغة .تأليف عبد القاهرالجرجاني(ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه محمود شاكر ،الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة .ص: ١٤٤ وراجع معه " المدخل" لشيخنا. ص: ٥٦

وأمّا «تمامُ الدِّلالة» فمن وجوه معناه أن تكون دلالة الصّورةِ على المعنى معادلة لِما هو قائمٌ فِي فؤاد المبين من المعانِي الّتي اصطنعها، فلا يكونُ ما فِي فؤادِه أوفرَ ممّا فِي صُورتِه . بل تدلّ الصُّورةُ على كُلِّ الّذي اصطُنِع في الفؤاد.

ومِن البيّن أنك لن تجدَ من البشر – خلا سيّدنا محمد - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - منْ تكونُ عبارته محيطة بكلّ ما في فؤاده من دقائقِ المعنى وخبايا وخفايه، فهذا العنصرُ عظم البلغاء لا يوفونه حقّه ، فهو من اعسر مقومات بلاغةِ البيان إفهامًا وفهمًا تحصيلاً ([1])

والحقُّ المبينُ المكين أنّ بيان سيدنا رسُول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – في أحاديثِه النبويّةِ عمّا يوحى إليه من المعاني متحققٌ فيه ذلك المقوم إفهامًا، وإن كانَ لا يتحقق من كل متلقيه فهما، ولكنهم متظاهرون أقربَ إلى الوفاءِ بكثيرٍ من حقه فهمًا. إن شَاء الله تَعالى وسيبقَى في بيانه من معاني الهدَى ما يتكشف في كل عصر بعضه حين يحتاج غليه أبناء ذلك الغصر،ويُملكهم الله - تَعَالَى – من أدواتِ كشفه بقدر ما يحتاجونَ إليْهِ

ومن البين أن تمام دَلالة الصورة على المعنى ووفائها لا يكونُ إلّا إذا كان المعنى في الفؤاد متغازرًا وهو لا يتحقّق له تغازُره إلا إذا كان اقتدار فؤاده على التبصر في الإشياءِ محسّها وغير محسّها لا يكادُ يفترُ ولا يكادُ يَمضِي على طريقةٍ واحدةٍ، ولا يكاد يأتِيها مِن جهةٍ واحدةٍ ، بلْ تراه في تبصُّره المُتدبّر يتخِذُ لكلِّ ما هو الأقدَر على أنْ يُغريه بأن يجودَ بدفائنه،

---

[1]) حقّ عليْك لنفسك أن تتبصر مقالة شيخنا في كتابِه «المدخل» ص: ٢٢١.

وبشوارده وأوابده، فتتكاثر المعاني وتتغازر . فروافد رؤية البليغ الإشياء متعددة متجددة .

ومن البين أنّ المَعنى في بيان النُّبوة لمّا كان وَحيًا إليه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – وليس له في وجوده أثارة من عملٍ إنْ هو إلا وحي يوحَى إليْه ([1]) كان النَّظر إلى تغازُر المعنى في فؤاد المُبين عنه لا مَحلّ للقولِ فيه ، فإنما النظر إلى أنّ بيانَه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – عن هذا المعنى الإلهي إنّما هو بيانٌ تامّ الدّلالة وفيٌّ بها، وهذا هو مناط إعجازِ بيانِه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – مناط إعجازه ليس في المعنى،لأنه ليس له، بل إعجازه في تصويره هذا المعنى الإلهي تصويرًا صادقًا وأمينا وَوفيًا بكل ما فيه من معاني الْهدَى الإحسانية وإنْ دقتْ ولطفتْ ،والتي لا تخلُق على كثرةِ الرد، والتي سيبقَى منها غير مستنبط في كل عصر حتى آخر عصر من عصُور الحياةِ الدنيا. فهو قد أوتي جوامع الكلم،واختص بذلك .

•••

وأمّا «تبرّج الدّلالة » فتحتمل وجهيْن :

- أن تكونَ من التزيّن ، نظرًا إلى قوله الله تعالى : (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ

[1]) لمزيد من تحقيق ذلك أغدُ إلى كتاب« حجية السنة» لأستاذنا الأجل أبي الكمال عبد الغني عبد الخالق(ت: ١٤٠٣هـ) . (ط:١) المانيا الغربية .شتوتغارت. عام ١٤٠٧هـ نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ص:٣٣٤-٣٤١

عَلِيمٌ (النور:٦٠) وقوله تَعَالى :(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) (الأحزاب: ٣٢)

- وأن تكون من الظهور والارتفاع والتمكن والإحكام. كما في قول الله تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)(النساء: ٧٨)

وعلى هذا يمكنُ أن يكون قوله : «ثُمَّ تَبرّجُها » يُفهم معنى الحسن والزينة وظهورهما ،ويفهم معنى الإحكام والتّمكن .

والذي أذهبُ إليْهِ أنَّ «تَبرجها» الأعلىأن يكون بمعنى "الإحكام" وليس الظهور- ذلك أنذلك يفهم من قوزله أوّلا «حُسْنِ الدلالة» فهو يتضمن معنى " الظهور" ولا يكون ظهورًا من بعد تبصر، فقولنا في البلاغة (وهذا ظاهر) لا ينحصر في أنه مكشوفٌ سافر بغير تبصّرٍ وتدبّر، فإن ما كان كذلك هو في شِرعة العقلِ البلاغيّ قُبْح .

يقول أبو هلال العسكري"(ت:٣٩٥هـ) :" وما كانَ لفظُهُ سَهْلًا ومَعناه مكشوفًا بيّنًا، فهو مِنْ جمْلَةِ الرّديءِ المرْدود" [1]

وتحتملُ أن تكونَ مِن التّمكُّن والإحكام والتّحصّن كما فِي قولِ الله تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)(النساء: ٧٨)

وعلى هذا يمكنُ أن يكون قوله : «ثُمَّ تَبرّجُها » مُفهمًا معنى الحسن والزينة وظهوره، ومُفهمًا معنى الإحكام والتّحصّن .

---

[1]) كتاب الصناعتين : الكتابة و الشعر . تاليف أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، نشر : المكتبة العنصرية – بيروت ،عام ١٤١٩ هـ ص: ٦٤

والذِي أذهبُ إليه أنَّ «تَبرّجها» الأعلى أن يكونَ بمعنى "الإحكام" و" التحصن" وليس الظهور من أنَّ "الظهور" يُفهَمُ من قوله أوّلا: «حُسْن الدلالة» فهُو يَتضمَّن مَعنى " الظُّهور" ولا يكونُ ظهورًا إلاَّ مِن بَعد تبصّر، فقولنا في البلاغة : «وهذا ظاهِرٌ» لا يراد به أنّه مَكشوفٌ سافِر بغيرِ تبصّرٍ وتدبّر، فإن ما كان كذلِك هُو فِي شِرعةِ العقلِ البلاغيّ العربيّ "قُبْحٌ" .

وَوجه ذلك أنّ ما كانَ مكشوفَ المَعنى سافرًا ، فإنّه الْحارِمُك مِن أن تفكِّر فيه ، أيْ الحارِمَك ممّا هُو السِّمَةُ المائِزةُ لبني آدمَ عَن سائر خَلق الله تعالى . إنّها السِّمةُ الرّئيسةُ مِن السِماتِ الّتِي كَرّم الله - سُبحانَهُ وَبِحَمْدِهِ - بها بني آدم، فمَن حَرم غيرَه منها ، فكأنّه يراه ليس أهلًا لأن يكون لها. وفي هذا من الإساءَة ما فِيه .

وكذلك هو الحارِمُ بيانُه مِن أن يَصطَحِبَهَ السّامِع، وأنْ يُقيمَ معَه ويُخادِنَه مُفكِّرًا مُستبصرًا متذوقًا ومتلذذا بصحبتِهِ ، وكلُّ ذلِك فيه مِن السُّوءَى ، فسُفورُ المعاني فيه مِن الإساءة للبيان ، وللمتلقّي من فيه ، ولِذا ، فإنّي الرّغُوبُ عَن كُلِّ بيانٍ سافرٍ معْناهُ سواءً كان مِمّا أخاطَبُ بِهِ أوْ أخَاطِبُ به. عَلَيْك وعلَيَّ أنْ نَلُفَّ وَلانَذَرَ قُلُوبنا فِي غُلالاتٍ مِن الدّمَقْس .

وفِي عَطفِ (تَبَرُّجِها) بِـ«ثُمّ» ما يَهدِي إلَى عُلُوِّ شأنِ هذا التّبرّج (الإحكام) والتّحصّن مِن الاحتمالاتِ المَجْرُوحَةِ ، بَلْ والمَرْجُوحَة بِما يُقِيمَنَّ فِي بيانِه مِن القرائنِ اللّفْظِيّةِ وَالمَعْنوِيّةِ مَا يَهدَى بها إلَى المَعنَى المُراد ومَا يَتولَّدُ مِنْه .

*****

سمات الصُّورةِ الدَّالة :

ثُمّ تسلَّل عبدُ القاهر مِنْ ذلِكَ إلى بيانِ النّعوتِ الْحُسنَى للدَّالّ: (الصُّورة) فقالَ: « فِي صُورةٍ هي أبْهَى ، وأزْيَنُ ، وآنَقُ ، وأعْجَبُ وأحقُّ بأنْ تَسْتَوْلِيَ على هَوَى النَّفسِ ، وتنالَ الحظَّ الأوفرَ من مَيْل القلوب ، وأولَى بأن تُطْلِقَ لسانَ الحامدِ، وتُطِيلَ رغْمَ الحاسِدِ»

ذكرَ لَها ثَمانيةَ نُعوتٍ :

- (أبْهَى - وأزْيَنُ - وآنَقُ - وأعْجَبُ)
- (وأحقُّ بأنْ تستولِيَ على هَوى النَّفس - وتنالَ الحظَّ الأوفرَ من مَيْل القلوب - وأولَى بأن تُطْلِقَ لسانَ الحامدِ - وتُطِيلَ رغْمَ الحاسِدِ)

جعل أربعة راجِعةً إلى ذاتِ الصُّورة (أبْهَى - وأزْيَنُ - وآنَقُ – وأعْجَبُ)([1])

---

[1]) " البهاء " هو الحُسنُ والجمالُ الأنيس الّذي تستكينُ إليْه النفسُ والروح. وذلك إنّما يكونُ مبعثُه رُوح الشّيءِ ، فهُو حسَنٌ جُوانيٌّ .

و"الزّينة" هي ما كان حُسنًا بدا مِن الداخلِ إلى الخارجِ ، فاجتمعت للبصر والبصيرة المتعةُ به. فالّذي بيْن "البهاءِ" و"الزّينة" أنّ فِي كلّ زينةٍ حَقّةٍ بهاءً ، (أيْ حُسنًا روحِيًا جُوانِيًّا) فإنْ خلَت منه فما هي بزينةٍ

فالزينة الحقة للإنسان رجلًا أو امرأة إنما هي ما كانت ظاهرة من "جوانيه" على "بَرانِيّه" .

ولذا تسمعُ الحَقّ - سُبحانَه وتَعالى – يقول :(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) (الأعراف :٣١) فقوله : «زينتكم» لا تنحصر في ما كان ظاهرًا من ثيابٍ ، بل الزينة الجوانية القائمة في الأفئدة من القنوت والأخبات والمسرة بالقدوم إلى بيات الله تعالى ، وفِي قوله «مسجد» ما يهدِي إلى أن تكونَ تلك الزّينةُ المأمور بها مِمّا يُعين المُتَزَيّن بها على الوفاء بحق السّجود الذي هو أشرف أحوال المصلي من أنه أقربُ ما يكون بيْن يديْ

وأربعةٌ راجعةٌ إلى أثرها في متلقّيها السّميعِ البَصيرِ العَقيلِ الفَهيمِ :

- (أَحَقُّ بأَنْ تستوليَ على هَوَى النَّفس)
- (تَنالَ الحظَّ الأوفرَ من مَيْلِ القلوب)

ربّه تعالى، وما القيام والقراءة والركوع إلا تهيئة لتحقيق كمال استحقاقات هذه الحالة «السجود»

ولا تغفلن عن الإعراب عن المنادَى بقوله «بني آدم» ففي الإضافة إلى سيدنا «آدم» - عَلَيْهِ السّلام - من المعاني ما يُوجب على المنادَى عليْهِ أن يكون أهلًا للإضافة إلى من خلقه الله - سُبحانَه وتَعالى – بيده وعلمه الأسماء كلها ، وأسجد له الملائكة تكريمًا ،وأسكنه الجنة.

و"الأنق" : حسنٌ يُورِث المَحبة والملازمةَ ، يقُال: أَنِقْت الشّيْء أيْ أحْببْته مِن حسنِه.

وفي صحيح مسلم كتاب «الرضاع» بسنده عَنْ عَلِيِّ بن أبي طالب رضِي الله عنه - قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا لَكَ تَنَوَّقُ فِى قُرَيْشٍ وَتَدَعُنَا ؟ فَقَالَ :« وَعِنْدَكُمْ شَىْءٌ ؟ ». قُلْتُ : نَعَمْ ، بِنْتُ حَمْزَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى الله عليه وسلَّم- « إِنَّهَا لاَ تَحِلُّ لِى .إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِى مِنَ الرَّضَاعَةِ».

قوله " تنوّق"أي تتخيّر ،لا يكون تَخير إلّا مِن حُسن مُحبّبٍ إلى النّفس

ومِن هذا ما أثرَ عن سيّدنا عبدِ اللهِ بن مسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قال:« إذا وقعت في "آل حم "وقعتُ في روضات دمثات أتأنق فيهن .»

يقُول أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه «غريب الحديث»(٩٤/٤): "وقوله: أتأنق فيهن - يعني أتتبع محاسنهن، ومنه قيل: منظر أنيق - إذا كان حسنا معجبا."

و"العجب" أن يبلغ الشّيْءِ فِي حسْنه الرُّوحيّ والظاهري حدًا لا يعرفُ سببه .

ممّا مضَى يمكنك أن تلحظ علاقة التّرتيب بين النعوت الأربعة، وتصاعدها .

وليس بلازمٍ أن يكون عبدُ القاهر قد قصد إلى ذلك النسقِ قصدًا ، فالمعاني الإحسانية قد تكون من قبيلِ ما يُعرفُ بـ"مستتبعاتِ التراكيب" وهي من قبيل " الإفادة" لا من قبيلِ"الدّلالة" ، فالدّلالة يكون مقصُودًا إليْها قصدًا رئيسًا، و"الإفادة" لا يلزم أن يكون مقصودًا إليها قصدًا رئيسًا ، ولكنّها تأتي في البيان، وتفاد منه بنظر صحيح لطيفٍ .

وما يؤخذ إفادة من الكلام البشري العالي أكثرُ ممّا يؤخذُ دَلالةً . ومن اقتصر في استنباطه على ما يؤخذ دلالةً، فقد غبن نفسَه.

- (أولَى بأن تُطلِقَ لسانَ الحامدِ)
- (تُطِيلَ رغْمَ الحاسِدِ)

هذه الأربعة هي آثارُ الأربعة الأُوَل. والأثر كما ترَى محيطٌ بالنفوس والقلوب ، فلا يملك المُعجب النَّصيفُ إلّا أن يُطلق لسانه مثنيًا مادحًا ، ولا يملك العاجزُ عن أن يَطوّف حولها إلّا أن يتأجّج الحَسدُ فِي صَدْرِهِ ، يبحث عن معابة ومثلبة ، فلا يؤوبُ إلّا بخسرانٍ .

رأيته باسطًا القول في سِمات الصورةِ الدالّة ، وهي لا تكون كذلك إلا إذا كانت من استحقاقات المعنى المكنوز في الفؤاد الصّناع .

وهو بهذا يقيمك مقامًا تعلّم منه شأنَ المدلولِ (المَعنى) ذلك أنّهُ إذا كان هذا شأنَ الصّورة (الدّال) وشأنَ عملِها (الدّلالة) فكيفَ يكونُ شأنُ المدلولِ ؟ ([1])

وكأنّهُ يقولُ لك : إنّ شأنَ المعنى أجلُّ منْ أنْ يقُومَ به بيانٌ ، فشأنه أوْلى بأن يكونَ كلّ فؤادٍ ساعٍ إلى تصوّره وتبصّره. فتتنوّعُ معرفةُ شأنِهِ بتنوّعِ تَصوّر المُتلقّين .

---

[1]) أعلاء المبين القولَ في شأن الدّال هو كناية عن عظيم شأن المدلون ، فمنزلة الدّال من المنزل لا أقولُ كمنزلة الخادم من المخدوم ، وإن كان له وجة صَبيح ، إلا أنّي أقول منزلة الدالّ من المدلولِ كمثل منزلة الولد منوالده،

ألا ترى أن الملوك إنما يبعثون رسلهم من خيرة رعيتهم، فعلوّ شأن المُرسَل من شن علو شأن منْ أرسله، بلْ ومن علو شأن من أرسل إليْه ، فسلوك الإعراب عن عظيم شأن الدّال سبيلٌ إلى الإنباءِ بعظيم علوّ وسموّ شأن المدلول، وأن الإعراب عن هذا العلوّ لا سبيلَ إلى تحقيقه، فأنت أصرح ما تكونُ إذا ما لَوّحتَ وكَنّيتَ وبهذا تفهم مذهب عبد القاهر في إعلاء شأن المعنى . فهو المليك الذي كلُّ ما عداه إنما هو من حشمه وخدمه.

وهذا إبلاغٌ في تفخِيم شأنِ المَعنى فِي البيانِ البَليغ ، فأنْتَ تكونُ أنطقَ ما تكونُ إذا لَم تنطقِ ، وأصرَحَ ما تكون إذا لم تُصرّح ، فإن في التّبيينِ تصريحًا تعيينًا وتحديدًا ، بيْنا في التّبيين تلويحٌ وَطلاقةٌ . وأقوَى مِنها طلاقةُ التّبيينُ بالسّكوتِ. وهذا وجهٌ مِنْ معنى قولهم : لِتذهبَ فيه النّفسُ كلّ مذهبٍ.

••••

الطّريقُ إلى تحقيقِ مُقوّماتِ جَوهرِ البَلاغةِ عندَ عبدِ القاهرِ:

مِن بعدِ أنْ أبان عبدُ القاهر عَن جوهرِ البلاغةِ قائمًا في" الدّلالة ، و"الدّال" وأبانَ عَن موقِعِ " المَدلول: المعنى" بطريقِ اللّزوم ، عمَد إلَى تُبيينِ جهةِ استعمالِ الخِصَالِ القائمةِ فِي "الدّلالةِ" وفِي"الدّال" مستعمِلاً طريقَ القَصْر بالنّفْيِ والاستثناءِ تمْكينًا لِمقصدِه فِي الفؤادِ ، وإيماءً إلَى أنّه مَا قال ذلِك إلاّ منْ بعدِ استقصاءٍ وتحقّقٍ ، فانْتهَى بِه الأمرُ إلى حَصْرِ جِهةِ الاستعمالِ فِي ما يقولُ .

وفِي هذا تَحفيزٌ لَك إنْ كُنْتَ مِمّن اتّخذَ "التّوقّف" فِيما يُقالُ، فَلا تأخُذُ ، ولا تَرُدُّ إلاّ مِن بَعْدِ تَثَبّتٍ تخلقًا بقولِ اللهِ تعالَى :

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (الإسْراء :٣٦)

كما هُو شأنُ أهلِ الْعلمِ وطلبتِه ([1]) فهُو يُحَفِّزُك إلى أن تَسْعى إلى استبصار جهةٍ أخرَى تَقرِنُها إلى الَّتِي انْتهى هُو إليْها

هُو بالإعرابِ بطريقِ "القَصْر"، لا يُلْجِؤك إلى أن تُسلّمَ له وتَخْضَعَ، هَذا ليْس مِن خُلُقِ أهلِ العلم ، وهُو في طليعتِهم ، هُمْ أرْغبُ فِي أنْ تكونَ له عَونًا ، لا عبدًا.

يقُول عبدُ القاهر مُبينًا عن جِهةِ استعمالِ الخِصال الحُسْنَى الَّتي يَجبُ أن تتحقَّق فِي "الدَّال" و"المَدلولِ" :

« ولا جِهَةَ لاستعمالِ هذِه الخِصالِ غيرُ أنْ تأتِي المُعنَى مِن الجِهةِ هِي أصَحُّ لِتأدِيَتِهِ، وتَختارَ له اللّفظَ الَّذِي هُو أخَصُّ بِه ، وأكْشَفُ عَنه ، وأتمُّ له ، وأحْرَى بأن يَكْسِبَه نُبلاً، ويُظْهِرَ فيه مَزِيّة. »([2])

أبانَ أنَّ للطّريقِ إلى تحقيق الخصَالِ الْحُسنَى للدّلالةِ وللدّال جانبيْن:

<u>الجانِب الأيمن</u>: إتيانُ المَعنَى مِن جهتِه الأصَحُّ .

<u>والجانِبُ الأيْسَرُ</u>: اختيارُ اللّفظِ الّذِي يَتّسِمُ بما ذكَر.

---

[1]) شأنُ أهلِ العلم وطلبته أنّهم لا يُسلّمُون لِمقالةِ أحدٍ من البشر غيرَ رسُول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - إلّا مِن بعدِ تبصُّرٍ فِي قولِه ، وفِي دليلهِ ، فإن صَحّ الدليلُ والاستدلال كانَ القبولُ والإقبالُ ، وإلّا فالقولُ ردٌّ على قائلِه.

ومِن ثمّ ليْس مِن شأنِ أهل العلم وطلبته أن يستدلّوا بأقوالِ العلماء، إنما الاستدلالُ بقولِ اللهِ تعالى وبقولِ رسُولِه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - ذلك أنّ أقوالَ العُلماءِ تَحتاجُ إلى دَليلٍ ، فكيفَ يُستدلُّ بما يَحتاجُ إلى دليل. إنّما أقوالُ العلماءِ يُسترْشَد بها، ويُستأنَس.

[2]) دلائل الإعجاز(م.س) ص:٤٣ (فقرة: ٣٥)

تلحظُ أنّ عبدَ القاهرِ أوْجزَ القولَ فِي شأنِ المَعنى (المدلول) وكان قبلُ قد أعربَ عن قيمتِه بطريقِ اللّزومِ. وجاء هنا فأغربَ بعبارةٍ بالغةِ الإجمالِ الّذي لا يَتسِعُ المَجالُ للإحاطةِ بتفصِيله .

قال: " أن تَأتِيَ المَعْنى مِن الجهةِ الّتِي هِي أصَحُّ لِتأديتِه" وَلَم يُبيّن لَنا ما الجِهةُ الّتِي هِي أصَحُّ لِتأديةِ المَعنى ، وكأنّه يَهدِينا إلَى أنّه لَيْس هنالِك جِهةٌ مُعيّنة لِجميعِ المَعانِي علَى تَنوّعِها وتَعدّدها، فلِكلّ مَعنًى جِهةٌ ، بلْ لَه هُو نَفسُه فِي كلّ سِياقٍ جهةٌ ، وهذا يُومِئُ إلَى أنّ هذا الجانِبَ لا يُحقِّقُه إلّا خِرّيتٌ حاذِقٌ يَهتَدي لأخْراتِ المسالك إلى الأشياءِ ومضايقها ، ويومئُ إلى أنّ مَناطَ التّفاضُلِ بيْن المُتكلّمين جُرْثُومتهُ العِرفان بطَرائق المَعانِي ، فلا يَأتي إلى المَعنى مِن الجهةِ الّتِي أتَى إليه سابقٌ ، فإذا ما اشتق إلى المعنى سبيلًا هو الألطفُ والأطرفُ كان ذلِك مهيّئا أن يَختارَ ذلِك المَعنَى صورتَه علَى نحوٍ يأنسُ به .

وهذا فيه هدايةٌ إلى أنّ ما يَجبُ الاجتهادُ فِيه في مدارسةِ البيان البليغِ هو استبصارِ الجِهةِ الّتي اصطفاها المُبين ليأتِيَ إلَى المَعنَى منها، فإذا ما تمّ له ذلك على الوجهِ الأحْمدِ كان بَملْكِه بعْد أن يَمضِي فِي مدارسةِ الصّورةِ ومكّوناتِها ومِنهاج دَلالتِها علَى ذلِك المَعنَى. وهذا أمرٌ بالغُ الوُعورةِ فِي أوّل الأمْر، لا يَلينُ قِيادُه إلّا مِن بَعد أحايين ، ممّا يُوجِبُ استحضارَ هَدْيِ سَيّدنا رَسولِ الله – تعالى- فِي هذا : « احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ ». (مسلم/ القدر- ح:٦٩٤٥)([1])

---

[1]) هذا البيان النبوي حرّى بكل مسلمٍ،ولا سيّما طلاب العلم ببيان الوحي احتسابًا أن يكون حاضرًا فاعلًا في الفؤاد الرشيد لا يغيب،ولا يغيم ،ولايخبو .

والظنُّ الأوثقُ أن البليغ يستحضر في فؤادِه الرشيد المعنى الأصلي (غير المصور) في فؤادِه الرشيد ، ثم يفكر في الجهاتِ التي يمكنه أن يأتي إليه منها، ويناظر هذه الجهات ثم يختار الأعلى في تأديته مطابقة لمقتضَى حال المعنى نفسه أوّلاً ثُمّ سائر الأحوال الأخر.

وذلك هو أساسُ المفارقةِ بين المتكلّمين بالبيان العالِي. لأن كل مفارقةٍ بعد إنما هِي مترتبة عليْها.

ولك أن تُجعلَ مِن هذا مَا سلَكهُ عبدُ القاهر وهُو يُبينُ فِي أوّلِ الفِقرةِ عَن الخِصَالِ الْحُسْنى لِمكوّناتِ البيانِ المُحَقّقةِ جَوهَرَ بلاغتِه (الدّال ، والدّلالة ، والمدلول) : لَم يَأتِ إلى بَيان خِصَالِ " المعنى/ المدلول) مِن الطّريقِ الّذي أتَى مِنْهِ إلَى بيانِ خِصَالِ "الدّال/ الصُّورة" و"الدّلالة" : أتَى إليْه منْ طَريقِ الْلزومِ. وهُو أمْكَنُ علَى ما أشَرْتُ قَبْلُ.

وَأنت إذا ما نَظرْتَ فِي فَصْل «الموازنَة بيْن المَعنى المُتّحد واللفظ المتعدّد» مِن كتابِه "الدّلائل" تَجِدُ أنّ عُظم التّفاضُلاتِ مِن جِهةِ التّميّز فِي حُسنِ اختيارِ الجِهةِ الّتِي هِيَ أصَحّ لِتأدِيَة المَعنى. ([1])

ترَى عبدَ القاهر في بيانِهِ ما بيْن صورةٍ لأبي نواس ، وأخرَى للنّابغة اتفقتا في المعنى الأصلي غير المصور وافترقتا في جهةِ الإتيانِ إلى المَعنى ، فكلٌّ التفتَ إليْهِ من جهةٍ ، وكان أبو نواس راغبًا عن الجهةِ

بيانٌ يقيمك على الجادة: حرصٌ على ما ينفع ممزوج بعلو همة وفتوة عزم واستعانة بالله تعالى.

وفي الاستعانة بالله جَلّ جلاله كمال التبرؤ من الحول والقوة إلى حولِ الله - تَعَالَى - وقوته. ومن كان هذا شأنه فإنّ خالقه - سُبْحانه وبِحمْدِهِ – لا يخذله بتةً.

[1]) دلائل الإعجاز(م.س) ص: ٤٨٩ - ٥١٩ (فقرة: ٥٦٩ - ٦٠٤)

التي أتى النابغة منها إلى المَعنى، وسلك من جهةٍ أخرَى، فجعل المَعنى الشِّعريّ فِي قولِه هو أحقّ بِه.

يَقولُ النّابغة:

إذا مَا غزا بالجيشِ حلّقَ فَوْقَهُ • عَصائِبُ طيرٍ تَهتَدي بِعَصَائبِ

جوانحَ قدْ أيقَنَّ أنّ قَبِيلَهُ • إذا ما التَقى الصّفَّانِ أولُ غالِبِ

يَقولُ أبو نواس:

وإذا مَجَّ القَنا عَلَقًا • وتراءَى الموتُ في صُوَرِهْ

راحَ في ثِنْيَيْ مُفاضَتِهِ • أسَدٌ يَدمى شَبَا ظُفُرِهْ

تتأيّى الطيرُ غُدْوَتَه • ثِقةً بالشِّبْعِ من جَزَرِه

تَرَى الغرض في الصورتين واحدًا مِنْ أنّه مطروح في الطّريقِ ، فقام كلٌّ ، فصوّره بما جعله هو أحقّ به. ولم يجعل المتأخرَ زمانًا في ظلّ المتقدم زمانًا.

وقِدْمًا قالَها الجاحظُ في " حيوانِه": «والمَعانِي مَطروحَةٌ فِي الطّريقِ يَعرفُها العَجَمِيّ والعَربيّ، والبَدويّ والقَرَوي، والمَدَنِيّ. وإنّما الشّأنُ فِي إقامةِ الوَزْنِ

وَتَخَيّر اللّفظِ

وَسُهولَةِ المَخْرَجِ

وكَثْرَةِ المَاءِ

وفِي صِحّةِ الطّبْعِ

وَجَوْدَةِ السّبكِ(١)

فإنّما الشّعْرُ صِناعَةٌ، وَضَرْبٌ مِن النّسْجِ، وَجِنْسٌ مِن التّصوير.»(٢)

قوله : « إنّما الشعر صِناعة..» أي صِناعة المعنى في النفسِ ،ثم إبراز هذه الصناعة في بيانٍ جمع بين متانة النسْج، وتتأنس مكونات الصورة المتخلقة في أثناءِ النسج ، فما هي بصور مطبوعةٍ فوقَ نسيج المعنى، بل هي صورة تتشكّلُ مع ممارسةِ النُّسج . فكلّ خيط فيها كما يسعى إلى اكتمالِ الرقعة ، هو يسعى إلى اكتمالِ الصورة على ما تراه في شأن الصور المنسوجة ، وليست التي طبعت على النسيج بعد تمامهِ ،والتي لا تزول إلا بزوال النسْجِ نفسِهِ .

---

١) قوله :«والمعاني مطروحةٌ في الطريق» يراد به المعنى غير المصور أي المعنى العامّ من الصورة (أصل المعنى وجرثومته ،ومادته الخام) الذي ليس ملكًا لأحدٍ .

أمّا المعنى الشّعري المستنبط من الصورة ، فإنما هو مناط العناية، وهو معدن البلاغة والبراعة .

وما حُسن الصورة إلا من أنها تتمخضه وتبثّه في الأفئدة ، فكلّ ما قال بعد قوله :«وإنما الشأن في..» ما كان له ذلك إلا لما ينتجه من المعنى الشعري .

وهذا المعنى الشّعري هو طُعمةُ مدركاتِ الحسن الرّوحيّ والنفسيّ والعقليّ والفؤاديّ في المقامِ الأوّل.

٢) الذي استظهره أن ترتيب هذه الصفات على هذا النحو :[(أ) صِحّةِ الطّبْعِ (ب) تَخَيّرِ اللّفظِ (ت) جَوْدَةِ السّبكِ(ث) إقامةِ الوَزْنِ (ج) سُهولَةِ المَخْرَجِ (ح) كَثْرَةِ المَاءِ] هو الترتيب الأنس ، فمبدأ الأمر «صِحة الطّبع» فهُو الذي يبنى عليك كلّ شيْءٍ ومنتهى الأمر «كثرة الماء» ومن معانِيه عندى ما يتسعِ لما هو قائم من النضارة في البيان من جهةٍ ، وما يسكبه في فؤاد السّميع البصير من أخرَى.

يقولُ عبدُ القاهر مُبيِّنًا عن مناط المفاضلة : « الأمرُ ظاهرٌ لِمَن نظرَ فِي أنّه قد نقَل المَعنَى عن صورته الَّتِي هُو عليها في شِعر النَّابغَةَ إلى صورةٍ أُخرى. ([1])

وذلك أنَّ هَهُنا مَعنيَيْنِ:

أحدُهما: أصلٌ ، وهو: عِلْمُ الطَّير بأنَّ الممدوحَ إذا غزا عَدُوًّا كان الظفرُ له ، وكان هو الغالبَ.

والآخرُ فرْعٌ ، وهو: طمَعُ الطَّير في أن تتَّسع عليها المَطاعِمُ مِن لحومِ القَتلَى.

وقد عَمَد النَّابغةُ إلى "الأصل"، الذي هو علْمُ الطير بِأنَّ الممدوحَ يكونُ الغالبَ، فذكَره صريحاً، وكَشَفَ عن وجهه، واعتَمَدَ في "الفرع" الَّذِي هُو طمَعُها فِي لحومِ القتلى، وأنَّها لذلِك تُحَلِّقُ فوقَه على دَلالةِ الفَحْوى ([2]).

وعكَسَ أبو نُواس القصَّة ، فذكَر "الفرْعَ" الَّذي هو طمَعُها في لحوم القتلى صريحاً، فقال كما ترى: ثقةً بالشِّبْعِ مِنْ جزرهْ

[1]) قوله:« نقَل المعنَى عن صورته ...» يراد بالمعنى هنا " اصل المَعنى وجرثومته، المادة الخام الذي هو شركة بين القائلين " وليس المعنى الشعري الذي اصطنعه القائل في فؤاده الرَّشيد.

[2]) مدخل النابغة "الأصل" الذي هو ظفر الممدوح في غزوه. ثم رتب عليْه الفرع. : ما هو مناط اهتمام الطير: قوتها ، وجعل النابغة الأصل هو ظفر الممدوح لا ظفر الطير أمرٌ يشاركه فيه كثير، فليس الممدوح هو الأوحد الذي يقاتلُ ليظفر بعدوه.

النَّابغة لما جعل ما شارك الممدوحَ غيرُه هو الأصل لم يك مبدعًا . هو لم يأتِ المعنى من الجهةِ التي هي أصح لتأديتِهِ

وعوّلَ في "الأصْل"، الذي هو علمُها بأنَّ الظفرَ يكونُ للمدوح، على الفحوى. ([1])

ودلالةُ الفحوَى على عِلْمِها أنَّ الظفرَ يكونُ للمدوحِ ، هِي في أنْ قال: "من جَزْرِه"، وهِي لا تثقُ بأن شِبعَها يكونُ في جَزْر الممدوح، حتّى تعلمَ أنَّ الظَّفر يكونُ له.

أفيكونُ شيْءٌ أظهرَ من هذا في النَّقلِ عن صورةٍ إلى صورة؟ »([2])

---

[1]) ما سلكه أبو نواس هو الأعلى في بابِ المدح : جعل ظفرَ الطير بحاجتِه هو الأصل وجعل ظفر الممدوح بعدوه سببًا لتحقيق طلبة الطير .

ومثل هذا لا ينازع الممدوح أحدٌ، فليس معهودًا أن يكون الباعثُ على قتال الأعداء هو تحقيق طلبة الطير، بل الباعثُ عند غيره الظفر بأعدائهم.

وكأنَّ الممدوح في رؤية أبي نواس موقنٌ بأن ظفره بأعدائه لا يحتاج إلى قتالهم، ، بل الذي يحتاج إلى قتالهم هو تحقيق ظفر الطير بطلبته، فهو نازلٌ بقتالهم على وَفق طلبة الطير الجوارح.

وكأنّه يرَى أنّه هو المسؤولُ عن تأمين قوتها ؛ لأنّها من رعيتِه ، فهو راعٍ ما في السماوات من الطيور، مثلما هو راعٍ من في الأرض من البشر وما فيها من الطير ونحو ذلك.

هو الحريصُ على أن يكون عند هدي سيّدنا رسُول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - : «كفى بالمرءِ إثما أن يُضيّع من يقوت» فإذا كان هذا شأنُه من الطير الجوارح ، فكيف به مع من في الأرضِ من البشر، وأنيس الطير والحيوان ، ونحو ذلك؟!!!

مسلك أبي نواس أعلى في بابِ المدح عندي. وأنت ترَى أنَّ الشاعرين كلٌّ سلك سبيلا إلى المعنى غير الذي سلكه الآخر.

[2]) دلائل الإعجاز(م.س) ص: ٥٠١ -٥٠٣ (فقرة: ٥٧٢ - ٥٧٤)

وانظر إن أحببت صنيع في هذا الغرض .(المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة – نشر نهضة مصر – القاهرة . ج: ٣ ص: ٢٨١

وكتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا »المؤلف : أحمد بن علي القلقشندي ، تحقيق :.يوسف علي طويل ، الناشر : دار الفكر – دمشق ،الطبعة الأولى ،سنة: ١٩٨٧ م. ج:٢ص: ٣٣٨

وهذا الجانب من الطريق هو الأصل في تفاضل القائلين ،وهو مبدأ السعي إلى التّميز ، فإن وفق كان له ما يريد ([1])

•••

<u>الجانب الأيسر</u> : اختيارُ اللفظِ الّذي يتّسِمُ بما ذكر.

كما رأيتَ كان نهج بعد القاهر مع " المَعنى" في الموضعين غيرَ نهجِه مع الدّلالةِ والدّال:

في المَعنى لفتَ إليْهِ أوّلا بطريقِ اللّزومِ، ولفتَ إليْه أخرَى بطريقِ "الإيجاز" بيّنا "الدّال: الصّورة" نَراه يَبسُطُ القولَ فيها أوّلا، فنَعتَها بثمانيةِ نُعوتٍ : أربعةٌ ذاتية، وأربعةٌ وظيفيّة ، ثمّ هُو آخرًا يبْسُطُ أيْضًا القَولَ في خَواصِّها قائلاً:

« وتَختارَ له اللّفظَ الّذِي هُو أخَصُّ به

وأكْشَفُ عَنْهُ

وأتمُّ لَهُ

وَأحْرَى بأن يَكْسِبَه نُبلا

ويُظْهِرَ فيه مَزِيَّةً. »

---

[1]) حقيقٌ عليْك – طالب علمٍ – أن تغدو إلى كتاب شيْخنا "المدخل" مستبصرًا لتحمل مزيدًا من عُلو النظر وتغوره في هذا الجانب : إتيان المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته.

ولولا أن تخليصي مقاله - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يفسده لفعلت، ولكني رغبت في أن تصغي إليه، فالإصغاء إلى مثله نعمة تستوجب شكرَ الله - تَعَالَى – الذي اكرمنا بصحبته والأخذ عنه. .

لِتَغْدو إلى كتاب «المدخل» . (ط:٢) ص/ ٢٢٤ -٢٣٣)

خمسةُ نعوتٍ سرَدها للفظ (الصّورة) المُختار؛ لِيَتحَقّقَ بِه جَوهَرُ بلاغةِ البَيانِ.

ثلاثةُ نُعوتٍ مناطُها علاقةُ اللّفظِ (الصُّورةِ) بالمَعْنَى .

(الأوّل) أن يكونَ اللفظُ (الصُّورةُ) أخَصَّ بالمَعنى أيْ ألّا يكونَ لفظٌ غيرُه لَه أن يَأتِيَ دَالاً علَى ذلك المَعنى ،وهذا يَهديك إلَى أنّ لا سبيلَ إلى أن يقُوم لفظٌ(صورةٌ) مقامَ لفظٍ آخَرَ فِي أداءِ المَعنَى، فهنالِك خُصوصيّة بيْن كُلّ صُورة (لفظ) ومعناه ، وهُو بهذا يَهدِيك إلَى أنّه لا يقُولُ بالتّرادفِ والتّناسخ، فلكل لفظٍ (صورة) خصوصية ، فلا يُغنِي لفظٌ عن لفظٍ، فإذا ما رفعْتَ لفظًا، وجئْتَ بنظيرِه من أسرتِه الدّلاليّة ([1]) فإنّ المَعنَى المُصوّر - لَا مَحالَةَ - سَيحدُثُ فِيه أثَرٌ إمّا أن يكُونَ حميدًا إن كان اللّفظُ الّذِي رُفِعَ لَم يُحسن اختيارُه ، وإمّا غيرَ حَسنٍ إنْ كان المَرْفُوعُ قَد أحسِنَ اختيارُه.

وفِي قولِه (تُختار لَهُ) إيماءٌ إلَى أنّ المُبينَ علَيْه أن تكونَ بيْن يديْه بدائلُ كُثرٌ يَنتقِي منها ما هو الأوْلَى ، وهذا مَطْلَبٌ عَزيزٌ وثَقيل ، وكأنّه يقولُ لِمَن شاءَ أن يَقُولَ قَولاً بليغًا : لا تُقْدِم حتّى تُوقِنَ أنّكَ ذُو ثراءٍ لغويّ مَليك ألفاظ (صُور)عديدةٍ لِكلّ مَعنى كلّ ذوحسنٍ إلاّ أنّها متفاوتةٌ فِي مستوياتِ

---

[1]) تنقسِم الألفاظ قسمين من حيثُ أنسابها ببعضِها .

(القِسْمُ الأوّل):الأسرة الاشتقاقية ،وهي التي تتولد من سِنخٍ واحدٍ وقد تلتقي في أصليْن من ثلاثةٍ من نحو" نبل، نبه ، نبو ... وهذا بابٌ عني به علم " الاشتقاق "بأنواعِه الثلاثة.

(القسْمُ الآخرُ): الأسْرَةُ الدلالية . أي أن تجتمع الكلمات على اختلاف موادها التي اشتقت منه في الدلالة على معنى ما ،من نحو "الحب" والعشق، والهوى ،ونحو علم،وفقه،وفهم..

وهذا بابٌ عني به علم فقه اللغة، وأهل العلم تجاوزوا في ذلك الكلم إلى التراكيب، كما تراه في مثل كتاب" الألفاظ الكتابية" للهمزانيّ . وَهم بهذا يقدّمون مَحصولاً لغويًا لِمَن شاء أن يكون مِن أهلِ اللّسن.

الحُسْن بجسبِ سياقِها، فما خلقَ الله كلمةً إلّا وهي تحسُن في موضِعٍ، ولا تحسُنُ في آخر.

وهذا يُومئ إلى أنَّ كلّ مبينٍ بليغٍ لا بُدَّ أن يكونَ مليكَ مهارةٍ وخبرةٍ نقديّة، يُميّز بها الأحْسَن مِن الْحَسن. وأن يكونَ عَليَّ الهِمَّةِ فِي اختياره ، فلا يَرْضَى إلّا ما لا فوقَه شَيْءٌ فِي الحُسْنِ .

وقوله (أَخصّ به) يلحظ السِّمة الأخيرةَ مِن السّماتِ الحُسنى للدّلالةِ (التبرّج: الإحكام) المانع من الاحتمال، المنافي للخصُوصية.

وقوله : « وأكْشَفُ عنه » هادٍ إلى البعد الوظيفي للفظ (الصورة) الإنباء عن الخبيءِ من المعنى، فالكشفُ لا يكونُ لما ظهر، بل لما كان متغورًا ،وهذا يلزمُه أن يكون" المعنى" ذو طبقاتٍ متلاحقة متفاوزة في التغور، فيكونُ اللفظ (الصّورة) المختار هوالأقدر على أن يصِلَ بك إلى الغاية، ، فيكشفها لك إنْ كنت ذا بصيرةٍ وفراسة، تبصر ما وراءَ الوراء.

وهذه السِّمة تلتفتُ إلى السِّمة الأولَى من السِّماتِ الْحُسْنى للدّلالة (حُسن الدّلالة) فلا يَتأتّى لك فِقه المرادِ بحسن الدلالة إلا في ضوءِ قوله(أكشف له) وهكذا تَتلاحظُ السِّماتُ وتَترافَدُ

وقوله :« وأتمّ له» تلتفتُ إلى السِّمةِ الوُسْطى (الثّانِية) مِن السِماتِ الْحُسْنى للدّلالة.

وهذا لا يتحقّقُ إلّا إذا كانَ اللفظُ (الصّورة) متسمةً بالصّدقِ والأمانةِ . بالصّدقِ تتحقّق المُطابقةُ ، وبالأمانةِ تَتَحقّق الإحاطةُ ، فلا يبقَى لفظ (صُورة) إلّا انعكاسًا لِما هو مُعتلِجٌ في الصّدر مِن المعاني (الصّدق) ولا يبقَى في الصّدر معنًى إلّا وقد دَلّ عليْه مَهما بلَغ في اللُّطف (الأمانة)

ويأتِي من بَعْدُ نعتان ملحوظٌ فيها ما يَمْنَحُه اللفظُ (الصورة) للمعنى :
(وأَحْرَى بأَنْ يَكْسِبَه نُبْلاً)[1]
(ويُظهِرَ فيه مَزِيّة)
قَولُه :« وأَحْرَى بأَنْ يَكْسِبَه نُبلاً » أي أن يكون اللفظ (الصُّورة) خليقًا وجديرًا بأن يَكسِبَ المعنَى نُبلًا.
قَولُه « يَكسِبه» أيْ يجعلُه فِي فؤادِ مَن يَتلقَّاه نَبيلًا، فيأنسُ إليْه ، وبِه، ويرَى فيه من الفَضائلِ والمناقِبِ ما يَحملُه إلى أن يكونَ له حفيظًا، وعليْهِ قيما.
وأنت كثيرًا ما تفعلُ ذلك مع بعضِ المَقولاتِ الحكيمةِ ، لِما ترَى فِي مَحمولها ما يذكي عقلك بِمحمولِه ويمتِعُ نفسَك وذوقك بأسلوبِهِ ،
وقولُه: (ويُظهِرَ فيه مَزِيّة) أيْ يكونُ اللّفظُ (الصُّورة) على حالٍ يبقّيك مستبصِرًا مُتدبِّرًا ، فإذا بِكَ مِن أسْرِ الصّورةِ قائمًا تَتَدَسّس في أغوارِ البيانِ . هِي مُعينةٌ لك على ألّا تُفارِقَها، تُقِيمُ معتكفًا تَتبصّر، فمِنْ جليلِ خِدمَةِ الصُّورةِ المعنَى أنْ تأسِرَ المُتلقّي فِي فُسْطاطِ المَعنى، لا يكادُ يَبرح

[1]) قوله (يَكسبه) فيه وجهان، الأول الأعلى بفتح الياء من كسبه يكسِبه،وهو الأجرى في الألسنة أهل البيان،والآخر: بضم الياء أكسبه يُكسبه. أيجعله يكتسبُ فوقَ ماله .
وقوله (نبلًا) ترى علاقة بين الفعل(نبل ،ونبه،ونبو) وفي كل معنى الارتفاع والسمو، وعظم الكلم التي فاؤها (نون) وعينها (باء) فيها معنى العلو. أو الظهور:
(نبت – نبح – نبذ – نبر – نبش – نبض – نبط – نبع – نبغ – نبل – نبه – نبو)
فدلك هذا على أن "النبل" أن يرتفعَ المرءُ عن كلِّ ما لا يليقُ وأن يرتفع بعَلِيِّ أخلاقِه ومحاسنها ومكارمها على كل أقرانِه، فالنبلُ صفة نفسيّةٌ قارة في صاحبها لا تفارقة في جميعِ أحوالِه وأطوارِه.

، كُلَّما بَدا لَه الارْتحالُ إلى الَّذِي بعدَه . أسَرَتْهُ الصُّورةُ، فَفاءَ إلَيْها مُستَبْصِرًا مُستَطْعِما.

وهذا ما تَراك فِيه حِين تقومُ بآيةٍ تُرَدّدُها لا لأنَّ التِي بعدَها دونَها، كلَّا بلْ ، لأنَك كلَّما ابْصَرت عَطيّةً مِنها أغْرَتك أن تَتَلبَّثَ.

ألا تَسْمَعُ مقالةَ سيِّدِنا عبْدِ اللهِ بنِ مسعودٍ - رَضِي اللهُ عَنْه:« إذا وَقَعْتُ فِي "آل حَم" وَقَعْتُ فِي رَوْضَاتٍ دَمِثاتٍ، أتَأنَقُ فِيهن. »(مصنف ابن أبي شيبة. رقم: ٣٠٩١٥)

وروى الحاكم في " المستدرك": قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : الْحَوَامِيمُ دِيبَاجُ الْقُرْآنِ.(رقم:٣٦٣٤)

وما رواه الدارمي في سننه من كتاب «فضائل القرآن» وابن أبي شيبة في مصنفه من قول سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، قَالَ : كُنَّ الْحَوَامِيمُ يُسَمَّيْنَ الْعَرَائِسَ.. »

وقول مَن قال:« إنَّ لِكُلِّ شَيء ثمرةً وإن ثمرة القرآن ذوات حم، هن روضات مخصبات متجاورات، فمن أحب أن يرتفع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم.» ([1])

•••••

(جوهر البلاغة وحقيقتها عند الخطيب القزويني.ت: ٧٩٣هـ)

---

[1]) جاء به البقاعي في مصاعد النظر مرفوعًا، ووقفه هو الأسلم الأحكم. فلا ترفع " النص" إلى مقام النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ .

وإذا ما كان عبدُ القاهرِ قد لفتَ إلى ما يُحقّق للبيان بُغيَتَه وطَلِبَتَهُ : إيصاله المَعنى إلى الفؤادِ مُمثَّلًا في حُسنِ الدّلالةِ وتمامِها وتبرّجِها" ، فإنَّ الخطيبَ القَزْوِينِيّ(ت: ٧٣٩هـ) قدْ جعل حقيقةَ البلاغة في الفعلِ الذي به يتحقَّق ما ذهبَ إليْه كلّ مِن عبد القاهرِ والرّمّانِيّ.

جعل حقِيقَتَها فِي « مُطابقةِ الكلامِ الفصِيح لمقتضَى الحالِ» وهو من أحكم ما عرف به الفعلُ البلاغيّ ، فكُتِبَ له السيرورة.

هذِه المطابقةُ هِي الّتِي تُحقّقُ للبيانِ حُسْنَ دلالتِه علَى معانِيه ، وتمامِها وتبرّجِها، وحُسْن دَلالتِهِ ... هُو الّذِي يُحقّقُ للمَعنَى وصُولَه إلى القَلبِ وتمكُّنه فيهِ ليؤدِّي البيانُ رسَالته الإصلاحيّة فِي الإنسانِ مِن جِهةٍ ، والإمتاعِيّةِ مِن أخْرَى مُتمازِجَيْن ، علَى أنَّ العُنْصرَ الإمْتاعِيّ يَعُودُ بالحُسنَى علَى العُنصرَ الإصلاحِيّ للبيانِ ([1])

وعظم المطابقة التي هي مناط عناية البليغ ، وعناية العقل البلاغي العربيّ إنما تتجلّى أكثر في العدول عمّا هو الأصل ، وهذا لا يعنِي أن إتيان البيان على الأصلِ ليس محلّ بلاغةٍ يُمكن أن يقف العقلُ البلاغي عندها يستبصر مقتضيات الإتيان على الأصل، دون العدول عنه.

لترك العدول عن الأصل مقتضٍ من الأحوال: حال المعنى أو الغرضِ ونحوه، إلّا أن خصَائصَ البلاغة تكونُ حينذاك راجعة إلى بلاغة اللسان ، لا بلاغة الإنسان، فما الإنسان حينذاك إلّا نازلٌ على المقتضِي .

---

[1]) أذهبُ على بصيرةٍ أنّ البيان الذي لا يمتزجُ فِيه العنصران: الإصلاحيّ والإمتاعي ما هو ببيانٍ بليغ. وإن كان العنصر الامتاعيّ في ما يعرفُ بالبيان الإبداعي الأدبي شعرًا ونثرًا أقوى ظهورًا ، لا حضورًا من العنصر الإصلاحي ، والأمر بعكسِه في البيان البشري العلميّ في العلوم الإنسانية.

فالأسلوب القائم على الحقيقة الراغب عن العدول عن الأصل قد تكونُ فيه بلاغة يفسِدها العدول. فكل صورة من صور البيان قامت على العدولِ أو لم تقم فيها بلاغة من استحقاقاتها السؤال عن مقتضِيها. وتبيين مستوى المطابقة فيها.

هذه المطابقة الّتي هي منها تتولد كل خصيصةٍ، وكل فضيلةٍ لا سبيل لبيلغٍ خَلا سيّدنا محمّد - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم - إلى الوفاءِ باستحقاقات كمالها .وإنّما يتفاضلُ البلغاء في تحقِيقِ القدر الأعظم منها.

وهذا ما جعل السّؤال الجوهريّ في أي مدارسة بلاغية أنما هو لم ؛وكيف.

" لِمَ" سؤالٌ عن "المقتضِي"،و" كيف" سوال عن "المطابقة". وهما سؤالان لا سبيلَ لأحد من المبدعين أن يدّعِي أنّه أحاطة بالإجابة عن كلّ . إذا رأيتَ قولًا بلاغيًا في قولٍ بليغٍ لم يكن فيه جوابٌ عن هذين السؤالَيْن ، فاعلمنْ أنّ هذا ليس من المدارسةِ البلاغيّة في شيْءٍ.

*****

كذلِك تَرَى الأعلامَ الثُّلاثةَ كلٌّ قَدْ نَظرَ إلَى حَقِيقة" البلاغةِ" وجوهرها مِن جهةٍ ، وكان أوّلَهم "الرُّمّانِيّ" ناظرًا إلى فِعلِها وثمرتِها: "الإيصَال"،وكان آخِرهُم"الخطيبُ القَزْويني" ناظرًا إلي ما بِهِ مَبْدأ تَحقُّقِها:" المطابقة" وأنتَ إذا ما أرَدْت أن تُشخصِدَ سِماتِ بلاغةِ البيانِ سواءً كان بيانَ وحيَ قُرْآنًا وَسُنّة ، أوْ بيانًا بَشريًا إبداعيًا أو عِلْميًا أوْ ثقافيًا ، فإنّ لَكَ ذلِكَ علَى التّحقِيقِ مِن حُسْنِ التّبَصُّرِ بمُقوّماتِ حَقيقةِ البَلاغةِ ، وجوهَرها فِي ما أبانَ عَنه الثُّلاثةُ الأعلامُ راصِدًا ذلِك فيما يَتعلّقُ بأرْكانِ الرّسالةِ الكَلامِيّةِ

الثُّلاثَةَ:" الدّالُّ والمَدلول،والدّلالَة" والمُطابَقة،والأثر الإصلاحِيّ والإمتاعِيّ للبيانِ فِي مُتلقّيه بِما يَليقُ بِهِ

•••••

[السمات الْكلية لبيانِ النبوة]

ولمّا كان القصدُ هنا إلى إيجازِ القَول فِي بيان السّماتِ البلاغيّة لبيانِه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ- فِي شأنِ المرأةِ ، وكانت "البلاغةُ" القائمةُ فِي الصُّورة إنّما معدِنها "المَعنى" وهو مُوحًى إليْهِ ، ليْسَ لِسيِّدِنا رَسُولِ الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - فيه شيْءٍ، وهذا فِي ما يَتعلّق بِبيانِهِ الدَّعَوِيّ التّبْلِغيّ النّبَوِيّ ، لا ما يَتعلقُ ببيانِه البَشريّ المُحمّدي " .

بيانُه المُحمّدي يَمُرّ بمرحَلَتَين:

- مَرحلةِ التّصوُّر (اصطِناعُ المَعنَى فِي الفؤادِ المُحمّديّ)
- ومرحلةِ التّصوير. (إبراز المكنوز في معرضٍ مشْهود)([1])

---

[1]) كل بليغ عليم من نفسِه أنه لا يحرك لسانَه أو قلمه لكلمة إلا من بعد أن يوفّي المعنى حقّه في فؤادِه، لعظيم علمه بمسؤولية" الكلمة" ولا سيما كلمة من يكون ممن يُغى إليه، ويؤخذ عنه،ووثيق هلمِه أنّ معانيه إنما هي ولائد صدره ،وانه عنده في منزلة ولائد صلبه، وأنها ربما تكون أنفع له ولقومه من ولائد صُلبه، ومن ثم تكون عناية البليغ بمعانيه عناية بالغة يعصمه من التناقضِ ومن الخلل والخطل ومن التعقيد والإلباس ومنأن يبرزه في صورة بلا تليقُ به ،وان يسكنه في يسر أفئدةَ المتلقين إسكانًا يمكنه من أن يفعل فيها ما ينبغي أن يفعل.

تلك حقائق كل ببليغ حكيم هو بها عليم مستحضرٌ في فؤاده، وفي نتاجه.

*****

أمّا بَيانُهُ النّبَويّ ([1]) الّذِي هُو مَناط القصْدِ هُنا ،فإن أهل العلم على أنّه ليس في البيان النبويّ شيءٌ يخالفُ ما كتابِ الله تعالى لأن كليهما وحي([2])فمن الذي هو محل اتفاقع ند أعيان أهل العلمِ أن معانيه إنّما هي وحي يُوحى إليه بسبيل غيرِ سبيلِ وحي القرآن إليْه ،

ومن المسلم به أن سيدنا رسول الله ﷺ هو أبلغ من نطق بالعربية التي هي أعربِ الألسنة،وأبلغها وآنسها للأسماعِ والأفئدة، وهو ﷺ أصدق وأحكم من يرَعى رعيته،ومعانيه من رعيته. وهو ﷺ القائل :« « مَنْ عَالَ ثَلاَثَ بَنَاتٍ فَأَدَّبَهُنَّ وَرَحِمَهُنَّ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ فَلَهُ الْجَنَّةُ ». (سننأبي داود،ومسند أحمد، وكتاب الأدب المفرد للبخاري ٤١- باب من عال جاريتين أو واحدة" حديث : ٧٦) ومعانيه المحمدية بنات فؤاده ﷺ .

ومن المسلم به أنه ﷺ الصادق الأمين في كل أمره ظاهره وباطنه فبيانه المحمدي عن معانيه التي اصطنعها فؤاده في ما لا يتعلق بالدعوة عقيدة وشريعة إنما هو متسم بهاتين الحليتين: الصدق والأمانة. فتتحققت مطابقة بيانه لمعانيه على كمالها .وذلك الذي لا قبلَ لأحدٍ أن يُسَاميه.

[1]) نعتُ بيانه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - بأن «نَبَوِيٌّ» نعتٌ كاشِفٌ عَن مصدرهِ ،وإنه آتٍ بطريقِ الإنباءِ ،وليس بطريق التفكر والتصور الذتـيّ للمبيين.وفي اختيار مادة (نبأ) إيماءٌ إلى أنه أمرٌ غيرُ معهودٍ ، وَأنه جد عظيمٍ كما هوالفرقُ الجليُّ بيْن «النبأ» و«الخَـبر»

[2]) يقُول ابن قيم الجوزية(ت: ٧٥١هـ):« اَلَّذِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ اعْتِقَادُهُ: أَنَّهُ لَيْسَ فِي سُنَنِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الصَّحِيحَةِ سُنَّةٌ وَاحِدَةٌ تُخَالِفُ كِتَابَ اللهِ، بَلْ السُّنَنُ مَعَ كِتَابِ اللهِ عَلَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ.

الْمَنْزِلَةُ الْأُولَى: سُنَّةٌ مُوَافِقَةٌ شَاهِدَةٌ بِنَفْسِ مَا شَهِدَ بِهِ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ.

الْمَنْزِلَةُ الثَّانِيَةُ: سُنَّةٌ تُفَسِّرُ الْكِتَابَ، وَتُبَيِّنُ مُرَادَ اللهِ مِنْهُ، وَتُقَيِّدُ مُطْلَقَهُ.

الْمَنْزِلَةُ الثَّالِثَةُ: سُنَّةٌ مُتَضَمِّنَةٌ لِحُكْمٍ سَكَتَ عَنْهُ الْكِتَابُ فَتُبَيِّنُهُ بَيَانًا مُبْتَدَأً وَلَا يَجُوزُ رَدُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ وَلَيْسَ لِلسُّنَّةِ مَعَ كِتَابِ اللهِ مَنْزِلَةٌ رَابِعَةٌ. » (الطرق الحكمية المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ(الناشر: مكتبة دار البيان . ص:٦٥)

وأعلى صور " الوحي" ما كان وحيًا بالقرآن، ثم الوحي بما هو من شؤون الدّعوةِ . وقد يكون بطريقِ جبريلٍ أو غيره من الملائكة ، أو بإلقائه في الفؤاد فيتولى الإعراب عما إلقي إليْه في فؤادِه ببيانِه هو. ([1])

---

[1]) جملة الفروق بين "القرآن" و"الحديثِ القدسيّ" و" الحديثُ النّبوي" والحديثِ المحمّدي " أن القرآن جميعُه : معنى ونظمًا ، وأداءً وحيٌ من الله تعالى ، يوحى إليْه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - بطريقِ جبريل - عَلَيْهِ السّلامُ - وحده، وحين يتنزل وحي القرآن علَى سيّدنا رَسول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - يعتريه من الأحوال ما لا يَعْتريه في غيرها. والقرآن هو الذي يصلّى به، ولا يمسُّ ما كُتب فيه مَن لم يكُن طاهرًا ،ولا يتلوه من كان جنبًا عن احتلامٍ أوْ جماعٍ ونحوه .
وهوالآية المتحدّى بها. وهو المرويّ تواترًا .
و" الحَديث القدسيّ " (إللهي أو الربّانيّ) معناه ونظمه من الله تعالى يوحى إليْه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - بغير طريق وحي القرآن ، ولا يعتري سيّدنا رَسولَ الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - ما يعتريه عند نزولِ القرآن عليْهِ ،والحديثُ القدسيّ، لا يُصلّى به،ولا يحرم مسّ ما يكتبُ فيه، ولا يَحرم على الجنب قراءته. ولا يشترط فيه التواتر.
وهذا الذي اخترته في شأن «الحديثِ القدسي» بعضُ أهل العلم لا يقُول ببعض السمات كسمة أن صورته،وحي، بلْ يرى الوحي معنا+،وصورته من النبيّ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم - .
و«الحديثُ النّبوي » ما كان معناه وحيٌ يوحى إليْه بطريقٍ غير طريقِ وحي القرآن. فقد يتوحى إليه بطريقِ ملكٍ غير جبريل γ وقد يكونُ رؤيا، أو ينفث في روعه على نحو ما رزاه ابن أبي شيبة في مصنفه بسنده عَن ابْنَ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ , إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ , وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ , وَإِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا , فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ , وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»

وهو بيان واقعٌ من البيان القرآني موقع " التبيين" من البيان .

{وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[النحل:٤٤]

أمّا صُورةُ هذا المعنى فمن بيانِه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - ،وهو بيان مطابقٌ شأن هذا المعنى الإلهي .

أما اليان المحمدي فهو البيان الذي يخاطب به أهله وأصحابه وغيرهم في شأن من شوون الدنيا ، فالمعنى والصورة منه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – إلا أنه لا يقُول إلا حقًّا في الرضَا والغضب.

روَى الترمذي في كتاب" البرّ والصلة" بسنده عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِىِّ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا. قَالَ « إِنِّى لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقًّا ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. مَعْنَى قَوْلِهِ : إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا إِنَّمَا يَعْنُونَ إِنَّكَ تُمَازِحُنَا.

وروَى أحمد في مسْنده بسنده عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِى رضِي الله عَنْهما قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّى أَسْمَعُ مِنْكَ أَشْيَاءَ ، أَفَأَكْتُبُهَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ ». قُلْتُ : فِى الْغَضَبِ وَالرِّضَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، فَإِنِّى لاَ أَقُولُ فِيهِمَا إِلاَّ حَقًّا ».

يَقُول أستاذ نا ألأجل العلامة أبو الكمال عبد الغني عبد الخالق رَضي الله عنه ."ما صدر على سبيلِ العادةِ والطبيعةِ وأقرّه اللهُ عليْهِ كشؤونِه فِي طعامِهِ وشرابِهِ ولباسِهِ وجلوسِه ونومِهِ وما ماثل ذلِك ،وكأقوالِه في المباتحثاتِ الدنيويةِ من حيثُ إنّها أفعالٌ لسانيةٌ كستئر أفعال الجوارحِ فإن ذلِك كلّه بعد تقريرِ الله له، وأمرنا باتباعِه فيه يكونُ بمنزلةِ الوحي دالأ على عدم حظر ما صَدرَ منْهُ علَى أقلّ تقديرٍ بالنسبةِ إليْه مطلقًا،وبالنسبةِ إليْنا إن لَمْ يقم دليلٌ علَى خصُوصيته فيه.

وأمّا مدلولاتِ أقوالِهِ اللغوية في المباحاتِ الدنيوية كطلبه الكفّ عن تأبير النخلِ ،وطلبه يَومَ بدرٍ النزولَ في مكانٍ ظنّه صَالحًا للحربِ ، فليستْ من الحكامِ الشرعيةِ ،ولا يتمسّكُ بها، بل هي كطلبِ بعضنا من بعضٍ فعلاً أوْ تركًا علَى سبيلِ الإرشَادِ والنصح والمشُورةِ على قدر ما يصِلُ إليْهِ عقلُ المرشِدِ والنّاصِحِ والمستشار وعلمه بالمسألةِ وينصَح بها،ويستشضارُ فِيها" (حجية السنة.(م. س) ص: ٣٤٠)

{وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[النحل:٦٤] ([1])

ومن البيّن أنّ من مقتضَى منزل "التبيين" من " البيان" أن يكون ما في " التبيين" من جنسِ ما في " البيان" فما جاء من بيان الله تعالى عن « القرآن» من عطاءات ربانيةٍ لمن نزّل إليهم قائمٌ في تبيينه «بيان النبوة» فحق على من يقُوم لمدارسة بيان النبوة أن يكون مستحضرًا في فؤاده الرشيد ما نعت به الله سُبْحانه وَبِحمْدِهِ كتابه الحكيم من أنه هدًى وبيان وبصائر، وموعظة عزيز ، لا يأتيه ه الباطل، ، ورحمة،وبشرى لمن كان به مؤمنا فلا يكون بتة في بيانٍ من السماتِ الوظيفية مالا يكونُ في تبيينه منها. ذلك أنّ «المعنى في كل من الله تعالَى موحى به ، وإن

---

[1]) جاء عقب هذه الآية المبينة عن إنزال القرآن على رسُول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلَّم – آية مبنة عن إنزال الماء من السماء لإحساء الأرض : {وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[النحل:٦٥]
ومثل هذا في سورة " البقرة" :
(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة:٢١]
(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ • وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ • فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[البقرة: ٢٢ - ٢٤]
فدل هذا على أن القرآن للأرواح والقلوب بمزلة الماء للأرض، فبه حياة القلوبِ والأرواح،ومن حرم روحه وقلبه من القرآن فهو الحارمهما من الحياة ،وتبصر كيف أنه ختم الآية بقوله جلّ جلاله(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) فهذا إلى أن الانتباه إلى ذلكلا يحتاج منكإلا أن تكون قوامًا بسمعك، لايحتاج إلى كبير علم وتفكر، الأمر واضح بين ،وفي هذا تعريضٌ بمنأعرض عن ذكر الله - تَعَالَى - . فمن طلب حياة لروحه وقلبه وعقله من غير القرآن فقد ضل سواءَ السبيل. فهل من معتبر؟

تكون صورة المعنى في «القرآن » كالمعنى كلاهما من الله تعالى، بيان صورة المعنى في بيان النبوةِ من سيدنا رسُول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم - توفيقًا من ربّه مرسله للناس رحمةً ،وللمومنين به رأفة ورحمةً خاصة بعه=هم تضاف إلى الرحمة العامة للناس، فهو - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم – رحمةٌ على رحمة.»[1]

---

[1]() من نحو قوله تعالى:

)ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِين}[البقرة:٢]

(وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِين}[البقرة:٩٧]

(هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون}[البقرة:١٨٥]

(هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِين}[آل عمران:١٣٨]

(قَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُون}[الأنعام:١٥٧]

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون}[الأعراف:٥٢[

(هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون} [الأعراف:٢٠٣]

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِين}[يونس:٥٧]

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِين}[النحل:٨٩]

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِين}[النحل:١٠٢[

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِين• هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِين}[النمل:١ -٢]

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُون • وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِين}[النمل:٧٧]

لبيان النبوة الذي هوتبيين له نصيبٌ موفور من هذه النعوت فحق على من يقُوم لمدارسة هذا البيانِ النبوي أن يسعىإلىاستبصَار معالم هذه النعوت وملامحها فيه.

وليس من ريبٍ في أن ان «المعنى الإلهيّ » مهيمنٌ على شأن «صُورتِه المحمّدية» فهو - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - متفردٌ بخصيصة أن يكون بيانه المحمدي عن المعنى الإلهي مطابقًا له، فليس في «المعنى الإلهيّ » شيءٌ ليس في «الصورة المحمدية» ما يُعربُ عنه تصريحًا أوْ تلْويحًا، فهو أي تصويرُ سيّدنا محمدٍ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - بلسانه المعنى الإلهي الموحي إليْه المنفوثِ في رُوعِه تَصويرٌ صَادقٌ وأمين على كمال النُّعتين في المنعوت: التصوير المحمديّ للمعنى الهيّ وهذا خصوصية لا تكونُ لغيره - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ . لنْ تجد أحدًا من الناس يمكنه أن يصور معاني غيره تصويرًا مطابقًا .

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .الم • تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ • هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ)[لقمان:١ -٣]

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ • لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[فُصِّلَت: ٤١ - ٤٢]

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)[فُصِّلَت:٤٤]

(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[الجاثية:٢٠].

هذه سِنَةٌ رئيسةٌ منْ سمات بيانه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - اقتضاه وظيفة البيان ، فهو بيانٌ همه الرئيس الإنباء بمرادِ الله تعالى ووحيه ، فكيما يكون قائما بهذه الوظيفة قيامًا كميلًا كان ضرورة دعوية أن يكُون بيانه صَادقًا أمينًا في الإنباء بما أوحي إليه إلقاءً في فؤاده.

وإذا ما كان من الفقهاءِ قد اختلفت كلمتهم في جواز روايةِ البيانِ النَّبويّ بالمعنى في شيْءٍ قليلٍ منه لا يترتبُ عليْه أدنى تغيير في الحكم المستنبط من هذا المرويّ. – إذا ما كان ذلك ، فإنّ الدّرسَ البلاغيّ للبيانِ النّبويّ لا يذهبُ إلى شيْءٍ منْ ذلك، فإن أدنى عدولٍ في كلمةٍ عما عليْه البيان النبوي مؤثر في المعنى البلاغيّ . فلا يحلّ بلاغةً أن يروي أحد حديثه النبوي صَلى بالمعنى،ولو في كلمة، ما كان مقتدرًا على أنْ يرويه بمنطوقِه صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِه وسلّم

والمَعنى البلاغيّ للبيان أوسعُ من المعنى الفقهي : المعنى الفقهي لا يعني كثيرًا بالمعاني الإحسانية للبيان، بينا المعنى البلاغي مناطُ عنايته هو المعنى الإحساني، وهو معنى قد يؤثر فيه أدني عدول، ولو في حرف مبنى من كلمة.

والمعنى الموحَى إليْه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ - والمعبّر عنْه بلسانه صلّى الله عليْهِ وسلّم معنًى يتسِمِ بأمريْن رئيسيْن

<u>الأوّل</u>): أنّه حقّ مبين مقيم لا يَعتريه ما يَعتري سائر المعاني. وأنه مُحكَم ، لاتنقضه حوادثُ الحياة ومستجداتُها. معنًى لا يأتيه الباطلُ من بيْنِ يَديْهِ ولامنْ خلفِه .مِن أنه معنًى إلهي.

الآخر) أنه خيرٌ عميمٌ محيطٌ لا يترتب على الأخذ به أدنى ضررٍ في كلّ عصرٍ ومصرٍ وجنسٍ .

هذان ينطوي فيهما كلّ ما هو جاعلٌ المعنى شريفًا في بابِه حصِينًا من التناقضِ أو المناقضةِ ، وحصينًا من أن يكون منه ما هو مخالفٌ ما في القرآن مِن معانِي الهدَى الظاهرة بذاتها أو بنظمها ،واللطيفة المفتقر تلقيها إلى مزيدٍ من التفرسِ المؤسس على التزلف لله - تَعَالَى – والتزود بأدوات التلقّي المكتسبة. فجميع معاني القرآن «ظاهرة» وهي لا تعدو أن تكونَ واحدة من ثلاث : ظاهرٌ في ذاته،وظاهر بنظمه ،وظاهر بتدبره .

وليس فيه معنًى لا سبيلَ لأحد أن يطلعَ عليْهِ في أي عصرٍ أو مصرٍ . وما يسمى بأسرار القرآن كالحروف المقطّعة أداءً : «الم»، «المص»...

فسيأتي – إن شاء الله تَعَالَى - من يملكه الله - تَعَالَى - المهارات والعلوم والأدوات التي يقتدر بها على كشف شيْءٍ من أسرارها ، وذلك حين يُحتاج إلى تلك الأسرار. فكلُّ معنى ينكشف في الزّمان الّذي يفتقر فيه إليْهِ. فإنما هو قرآنٌ كريم

{وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الزُّخرُف:٤]

•••••••

□□□ جِمْعةُ سماتِ بيانِه النَّبويّ

فِي الذِّكر الحَكيمِ وَجّهَ إلى سيّدنا رسُولِ الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِه وصَحبه وسلّم – الأمرَ بأنْ يقولَ ، وجاءَ فِي الذِّكرِ الحَكيمِ أيضًا نَعتُ القولِ الحَمِيدِ بعدّةِ نُعوتٍ :

« معروفًا ، سديدًا، مَيْسُورًا، لَيِّنًا بليغًا ، كريمًا، » مِنها ما هُو راجعٌ إلى ذاتِه ، ومنْها ما هُو راجعٌ إلى أثره ومنه ما هو راجع إليهما ([1])

....

وجَلِيٌّ لا يَخفى أنّ لكلِّ قولٍ غايةً يُرادُ بلوغُها بِه ، وتلك الغايةُ هِيَ الَّتِي تُعيِّنُ مَنهَجَ القولِ ، ومنهجُ القولِ هُوَ الَّذِي يُحقِّقُ لَه سِماتِه.

ومِن ثمَّ يَكونُ بِمَلْكِ المُستَبْصِرِ تَدَبُّرًا أن يَتَبَيَّنَ كثيرًا مِن سِماتِ القول إذا ما تَبَيَّنَتْ لَه الغايةُ الَّتي يُركَبُ إليْها.

---

[1]) المعروف المَعْرُوفُ: اسمٌ لكلّ فعل يُعْرَفُ بالعقل القويم أو الشّرع حسنه . وإن كرهتْه نفوسٌ لأمرٍ فيها لا فيه. فكل ما سكنت إليه النفس [أيْ السويةُ] وأحبته من قول أو عمل وليس مخالفاً للشرع فهو معروف" كما يقُول البقاعي ، فهذه صفة ترجعُ إلى محمول القول، إذا ما كان المحمول كذلك ، فهو مقتضٍ بلاغةً أن تكون صورته مطابقة له ،من أن البلاغة مطابقة الكلامِ الفصِيح مقتضى الحال،ومن مقتضى الحال حال المعنى.

و(القول السديد) الذي لا خلل في مضمونه وفي صورته، فهو الكاملُ لا نقصَ أو عوج فيه. وهذا يوجب إحكام معناه وإحكام صورتِه وهو عدلٌ وصدق ومطابق لما يقال فيه،وله.

و(القول الكريم) هو كلّ شيْء كان شريفا في بابه فإنه يوصف بالكرم ،وشريف الأشياء أعلاها كأنه يُشْرِفُ على ما عداهُ يقُول البقاعي (قولا كريما) «أي حسناً جميلاً يرضاه الله - تَعَالَى - ورسوله θ مع ما يظهر فيه من اللين والرقة والشفقة وجبر الخاطر وبسط النفس، كما يقتضيه حسن الأدب وجميل المروءة، »

و(القول الميسور) ما كان مخرجه من الفؤادِ واللسان سهلًا ، وكان إنجاز مضمونه لا يجاوز الطاقة ، فكل ما لم يجاوز الطاقة هو عسِرٌ، وهو ما يُسمى بالتكلف. ولذا كان هذا اليسير أمرًا نسبيًا، فما يكون عسرًا على واحدٍ قد يكون يسيرًا على غيره، وهذا يوجبُ في البيان مراعاة حال من يُخاطبُ به.

و(القول اللين) الذي لا خشونة فيه وغلظة،وحدة ، وارتفاع صوتٍ ونحو ذلك مما لا يشق على نفس سامِعه

. فهي صفة ترجع في غالبِ الأمر إلى أدائه

كل هذا يُبيّن لك قيمةَ الاحتفاء بالبيان في صناعة معانيه وتصويرها وأدائها .

وغايةُ البيانِ النّبوي إنما هي تبليغُ مُرادِ اللهِ تعالى من العبادِ إليهم وتمكينه في أفئدتهم . فالبَيانُ النّبويّ بيانٌ تبليغِيّ ، ونَعتُه بالنّبَويّ هادٍ إلى تِلكَ الغايةِ.

وهذا يقضِي أن تكونَ السّماتُ الغالبة سماتٍ تبليغيّةً أيْ سِمات وظيفيةً ، قد تجري فيها بعضُ السّماتُ الحِجاجيّة والسِّمات التَّخْيِليّة على قدرِ ما يُعينُ على تَحقيقِ التّبليغ.([1])

---

[1]) في قولنا " بيان" نبويّ" قرينةٌ فتيةٌ على أن قولنا " السّمات التّخيلية" لا يراد منه أنّ هذا البيان النبويّ قائمٌ على تخيّل المُبين ،كما يكون في البيانِ البشري الإبداعي : شِعرًا ونثرًا أدبيًا ، عمودِ أمره "التّخيّل المفضي إلى "التّخييل".
قولنا " بيانٌ نبوي" قاطعٌ في أنّ مصدره حق، فهو إلهي المصدر، ليسَ لسيّدنا رسُولِ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – عملٌ سِوى تصوير ما يوحى إليْه تصويرًا يحقّق تبليغه على كمالِه إلى الأمّة في كلّ عصرٍ ومصر من أنها دعوة عامة الثقلين إلى يومِ القيامة.
بيْنا الكلمة الإنسان الإبداعية تعتمدُ كثيرًا على الخيال بوجهيه :«التخيّل" من قبل المبدعِ صناعةً للمعاني، و«التّخييل» للمخاطَب " السّميع "
بيان النبوة يسعَى إلى أن يَتخيّل السميعُ الحقّ الذي يخاطَبُ به، ويكون غيبًا مضَى أو غيابًا عنه حاضرًا أو غيبًا مستقبلاً، فيراه كأنه قائمٌ بيْن عينيه على ما تراه في ما رواه " مسْلم" في كتاب « التَّوبة» من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى عُثْمَانَ النَّهْدِىِّ عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِىِّ قَالَ - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ - لَقِيَنِى أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « وَمَا ذَاكَ ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-

وهذا ما تراه من شيوع السماتِ المقرّرة والمُمكِّنةُ للمعانِي في الأفئدةِ، والسماتُ المقرّبة، ثُم السّماتُ المُحفِّزةُ المثورة.

وأنت تجد أمتاعه ممزوجٌ في منفعته، وهي وإنْ تولت من منغعته، فإنّها ممكنة لها.

وكطل متعةٍ تولدتْ من منفعة، فهي متعة نفيعةٌ أيضًا ، فليس في بيان النبوة ما هوة ممتع النفسِ غيرَ نافعٍ للفؤادِ عرفانًا ضابطًا للحركةِ السلوكية.

وهذا يجعله بيانا مفارقًا البيان البَشريّ الإبداعيّ مما يجعل مدارسته وفقَ القواعد البلاغية المستمدة من مدارسة الشعر فيها من الاسقاطِ عليْه . ذلك أن تطبيق قواعد مستمدةٍ من فنٍّ قوليّ على فنّ قوليّ آخر ضربًا من الإسقاطِ ، فكيف إذا كان الفن القولي هذا من باب الوحي،وما استمدن منه القواعد من باب "الإبداع"

******

إنّما هو صِدقُه وأمَانته أيْ صِدقُهُ فِي تَصويرِ المَعنى الَّذِي أوحِي إليْه، وأمانتُه في نقلِه مِنْ خلالِ الصّورة نقلًا تامًّا لا يَدَع منه معنًى مَهْما كان

« وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِى وَفِى الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِى طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ.
تبصّر قوله : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ »
هذا آيةٌ على أنّ البيان النّبويّ يخيّل له الحقّ المُبينُ الّذي غاب عنهم ، كأنّه قائمٌ بيْن عينيهِ.
وهذا لا بدّ أن تكونَ له سِماتٌ تصويريّة تحقّق له هذه الغاية. فالبيانُ النّبويُّ حقّ لا تخيّل منه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِه وصَحبِهِ وسلّم – وهو بيان مخيّلٌ (بكسر عين الكلمة):جاعلٌ سميعِه يتخيّل الحقّ الغائب عنه قائمًا بيْن عينيه.

بالغَ الُلطفِ، إلا وكانَ في صورة هذا المعنى ما يدلُ عليه بلطفِ يعادلُ لطفَ ذلك المعنى.

فالصدق في البيان النبوي المتمثل في الصورة هو مطابقته شأن المعنى الموحَى إليْه . ولاأريد بالصدقِ هنا صدقه مع الواقِه الخارجيّ، كماهو شأن صدق بيان سائرِ البَشر

كلّ سمةٍ هي قائمةٌ فِي هذِه السِّمةِ الكُليّة الجامِعة: « الصِدقُ والأمانة »

.

وهذِه السمةُ الكلية لبيانِه النّبويّ هي مناط إعجازه. ومن البين أنّا نريد هنا صدقه وأمانته في الإعرابِ عن المعنى الذي أوحي إليْه ، ولا نريد بهما الصدق والأمانة اللتين كانا فيه قبلَ النبوة ، فهاتان قائمتان فيه في علاقته بالناسِ ، ونحن هنا في علاقة بيانه بما يُوحى إليْه من ربه سبحانهُ وبحمده من غيرِ القرآن . فقولنا هنا متعلقٌ بسمة   «الصدق » و«الأمانة» المُتعلقتيْنِ بعلاقة الصُورة المحمدية بدلالتها علَى المَعنَى الإلَهيّ.

وثَم سِمَة كليةٌ أخرى إلا أنّها متعلقة بحالِهِ مبينًا مبلغًا هاديًا تتمثّل في أربعٍ : الرّحمة العامة، والحرصُ المحيط"

و"الرّحِيمِيةُ والرأفةِ الخاصتيْن "

هُو فِي بيانِهِ المحمّدي المُصوّر المعنَى الإلَهي الرّبانيّ المُوحى إليْه مُبلغًا بلسان مقالِه ، كمثلِ ما هو مبلغ أمّة الدّعوةِ عامّة بِلسانِ حالِه ما أوحِيَ إليه مُتَّسِمٌ بهاتين السِمَتَيْن الأولَيَين: « الرّحْمَةِ العامّة، والحِرصِ المُحيط»

وهو مخاطبٌ أمة الإجابة يتسم بيانه بسمتين مضافتين إلى الأوليين:
«الرّحيميةِ والرّأفة الخاصّتين» .
والحقّ سبْحانه وتَعالى حتم سورة التّبوة ببيان شأن حليةِ سيّدنا رسُول الله
- صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – وهي حلية قائمةٌ في لسانه ،
كما هي قائمة في حاله ،فبهما آداؤه لرسالته التبليغية.
(لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم
بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيم • فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم) [التوبة: ١٢٨ - ١٢٩] ([1])
هذه خمسُ صفاتٍ تمثل حليته - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم -
:
مِّنْ أَنفُسِكُمْ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُم
بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ
رَّحِيم

[1]) في المحتسب لا بن جني:« ومن ذلك قراءة عبد الله بن قُسَيْط المكي: "لقد جاءكم رسولٌ من أنفَسِكم" قال أبو الفتح: معناه: من خياركم، ومنه قولهم: هذا أنفس المتاع؛ أي: أجوده وخياره، واشتقه من النفس؛ وهي أشرف ما في الإنسان.»
(المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها . تأليف :أبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ) الناشر: وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . عام : ١٤٢٠هـ ج:١ص٣٠٦)

لما كانت هذه السورة«التوبة» ذات طابع يتسم بالشّدةِ على المنافقين والكافرين الصّادين عن سبيلِ الله تَعَالَى جاءت خاتمتها تقرّر ما فطر عَلَيْهِ نَبِيُّ هذا الدين الحنيف خاتمُ الرّسلِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى إخوانه الأنبياء، وعلى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم تسليمًا كثيرًا- مخاطبًا أمة الدعوة جمعاءَ في كلّ عصرٍ ومصر،مؤكذا هذا بقوله تعالى (لقد) المُنْبئُ باللام عن القسم ، تقريرًا لهذا المَعنى ، وإيماء إلى أهميّة حضُوره فتيًا في كل فؤادٍ ، ففي حضوره فيه ما يُعينه على أن يقبل مُتَشَوّقًا .جاعلًا - جلّ جَلالُهُ -طليعة هذه أنه «من أنفسِهم» والشّان في ما كان منك أنّهُ لا يكونُ عليك.(١)

ثم بني عليها أربعَ حُلَى: (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ)(حَرِيصٌ عَلَيْكُم)

(بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ)

(بالمؤمنين رَّحِيم)

وهذه الْحُلَى الخُلقية السلوكية متحققة في بيانِه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – ذلك أنّ بيان كل سَوِيّ الشّانُ فيه أن يكونَ شأن حليته الخُلقية السلوكية . فالسبيل إلى العرفانِ بسمات بيانِه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – العرفات بأخلاقِه ومسلكه ،وهو القائلُ له ربّه

---

(١) عهد على الأنبياء أن يكون نداء كلٍّ لمن بعثَ إليهم هاديًا أن يقول " ياقوم " أي يا مَن شانُهم أن يقُوموا معي ناصرين لامصادمين ، في هذا تعريضٌ بمن قام مصَادمًا منهم . تجاوز ما هو حقّ عَلَيْهِ من (المساندة) إلى نقيضِها(المُصادَمة) ولو أنّه انتقل من المساندة إلى المسالمة التي لا تناصر، ولا تصادم لكان الأمر أهون. ولذا لم يؤمر النبيّ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – بمقاتلة من لم يستجب،وسالم،ولم يصادم، وإنما أمر بقتال لا بقتل من عاند وصد عن سبيل الله - تَعَالَى - فبسبب الصد يكون القتال لا القتل. فجهاد الكفار مقاتلةٌ لا قتلٌ، ومقاتلة لمن يصد غيره عن الحق، فهو في حَقيقتِهِ دفاع عن حقّ الآخرين.

- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[القلم:٤] فالشأن أن تكون سماتُ بيانه منسولةً من ذلك الحلقِ العظيم.

****

الطريقُ إلى تصنيف السمات البلاغية .

يحسن استقراء السِّمات الأسلوبية وتصنيفها وفق مقوّمات جوهر البلاغة وحقيقتها .

سماتٌ مختصة بالدلالة

وأخرَى مختصة بالدّال : الكَلم والتراكيب والتصوير والتنغيم وكل سمات الصورة كما جاءت في بيان عبد القاهر

وسمات المعنى أتيانه من الجهة التي هي أصح، وموقعه مِن المعنى القرآني، ومطابقة البيان لمقتضيات الأحوال ،ونحو ذلك

وهذا يمكنك أن ترصده في كلّ حديثٍ نبويّ في بابٍ من الأبوابِ ، حتى إذا ما فرغتَ من أحاديثِ بابٍ ، نظرة في السماتِ الأسلوبية الأكثر حضورًا في أحاديثِ هذا الباب، والسّمات التي اقتضاها حال المعنى والغرض ، والسمات التي اقتضَاها المخاطبِ بالبيانِ والسماتِ التي اقتضَاها سياقُ الورد، وهكذا فهناك سمات كلية مطلقةٌ في كل باب، وسمات مقيدة.

ثم يجري الأمر في سائر الأبواب على هذا النحو، فإذا فرغنا نظرنا في السماتِ الكليةِ الحاضرة في كل الأبوابِ أوعظمها، لتكون سمات بيانه العامة. ونتبين فيه قدر خصيصة الصدقِ والأمانة من جهة، وخصيصة الرحيمية والرافة من جهةٍ وقدر الرحمة والحرصِ من أخرى.

******

ومما هو جليٌ لا يَخفى أنّه من السّماتِ العامة في بيانه - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم - سِمة علاقة مقدار الصُّورة المُحمّديّة بمقدار المعنى الإلهي في الحديث: سِمة "الإيجاز"

رَوَى البخاريّ في كتاب «التّعبير» ومسلم في كتاب «المساجد» من صحيحهما كلّ بسنده عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ : « بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ ، فَوُضِعَتْ فِى يَدِى » .

ورواية مسلم: « فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِىَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِىَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِىَ النَّبِيُّونَ ».

وقال البخاري عقب روايته الحديث:" قَالَ مُحَمَّدٌ وَبَلَغَنِى أَنَّ جَوَامِعَ الْكَلِمِ أَنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ الأُمُورَ الْكَثِيرَةَ الَّتِى كَانَتْ تُكْتَبُ فِى الْكُتُبِ قَبْلَهُ فِى الأَمْرِ الْوَاحِدِ وَالأَمْرَيْنِ . أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ .

وجوامع الكلم هي بيانه النّبويّ على ماعليْه جمهرة أهل العلم ، وآية ذلك ما رواه النّسائيّ في كتاب «التطبيق» بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ [أيْ ابن مسعود] قَالَ : كُنَّا لاَ نَدْرِى مَا نَقُولُ إِذَا صَلَّيْنَا ، فَعَلَّمَنَا نَبِىُّ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- جَوَامِعَ الْكَلِمِ فَقَالَ لَنَا «قُولُوا التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِىُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ».

قَالَ عُبَيْدُ اللهِ قَالَ زَيْدٌ عَنْ حَمَّادٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ لَقَدْ رَأَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يُعَلِّمُنَا هَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ كَمَا يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنَ.([1])

قولهم : «كما يعلمنا القرآن» آيةٌ على أنه كان حريصاعلى منطوقِه لايخرمون منه حرفًا ولا حركة.لما اشتمل عليه نصه من عليّ المعاني وجليلها([2])

في بيان النّبوة جمل صغرى سواء جاءت فريدة ليس معها غيرها أو جاءت في بيان فيه بسطة سواء كانت في أوله أو ثبجه أو آخره إلا لأن لك أن تجحملها فريدة ، فتكون المقتدرة بما هي تحملها في نظمها من دقائقِ معاني الهدَى الإحسانية التي إن شئت تفصِيلها امتدت بك امتداد ما بقِيَ منْ حياتِك ،وجُهدِك:

من ذلك قوله ما رواه البخاري في كتاب «الأدب» بِسندِهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - أَنَّهُ قَالَ « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » .

---

[1]) مما لا يليق بطالب علم ألاّ يفيىءَ إليْه ويعتكف فيه ما جاء به الجاحظ عن بيانه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – في كتابِه « البيان والتبيين» وما جاء به القاضي عياض في كتابِه « الشفا» وما جاء به الرافعي في في كتابه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» وفصل" السمو الروحي الأعظم:،والجمال الفني في البلاغة النبوية" من كتاب«وحي القلم » (ج:٣ ص٥-٢٧) نشردار المعارف ط(٢) وما كتبه عباس محمود العقاد في كتابه « عبقرية محمد» وما كتبه شيخنا في كتابه « من أحاديث رسُول اللهِ θ دراسة في بلاغه وبلاغته » نشر مكتبة وهبة – القاهرة ،وكتابه «شرح أحاديث من صَحيح البخاري : دراسة في سمت الكلام الأول» و«شرح أحاديث من صَحيح مسلم : دراسة في سمت الكلام الأول». ففي ذلك ما لواستقرأت وصنفت ثم استنبطت ما ذكروا من السماتِ لكان لديك من ذلك علمٌ نضير وفير. فاستَعن باللهِ - تَعَالَى – ولا تعجز.

[2]

هذه الجملة التي لا تعدوأن تكون مكونة من ركني الجملة (الْمَرْءُ) (مَعَ مَنْ أَحَبَّ) هي جُمْعة أصول وضوابط علاقات المرء مع الله تعالى ومع الحيالة كونها وإنسانها، لا تخرجُ العلاقة مع أيّ عن ما جاء في هذه الجملة.

ولا سبيل لأحد إلى أن يستبصر ما فيها إلا إذا كان عليما بما يبينه عن غيرِهِ ، ليتأتى لك أن كنت في علاقتك مع الله تعالى /، أومع أيّ من العالمين هي علاقة «الحبّ» ليَعرفَ إن كان معه أو ليس معه.

«الحبُّ» لا سبيل إلى تعريفه تعريفًا حقيقيًا كاشفًا عن جوهره، بحيُثُ يكون التعريف مشتملاً على ركنين أساسين في التعريف الموضوعي : (الجنس) و(الفصل) على نحو ما تراه متّحققًا في تعريفِ«الإنسان» بأنّه «حيوانٌ ناطق»

وإذا ما كان «الحبُّ» لا يمكن تعريفه ، فإنّه من اليسير التّعرّف عليْه من خلالِ ما يقتضِيه : الحب بهذا هو " إيثار المُحِبّ مرادَ محبوبِه على مرادِه هو"

لتنظر في حالك مع من تقولُ إنك له محبٌّ : أأنتَ مؤثرٌ محبوبَه على محبوبِ نفسِك ؟

وهل إيثارك هذا إيثارٌ حُملت عليْهِ نفسك حملًا أي أأقدمت عليْه بمنطق عقلك لا بإيمان قلبك ؟ إن يكن فما أنت بالمحِبِّ حقًا .

روى البخاري في كتاب «الأيمان والنزور » عنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ هِشَامٍ قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - وَهْوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِى . فَقَالَ

النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - « لاَ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ فَإِنَّهُ الآنَ وَاللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ نَفْسِى . فَقَالَ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - « الآنَ يَا عُمَرُ » .

«الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أحبَّ » جملةٌ نبويّة هي معيار قويم يفصل بالحقّ بين مواقفِ الناسِ بعضِهم من بعضٍ، ومن قبلُ يُبين عن حقيقةِ مواقفَ النّاسِ من ربهم سبحانَهُ وتعالى ،وهذا ماأنت واجدٌ أصله في قول الله تعالى : {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[آل عمران: ٣١]

أنا في لحظة العصيان لستُ بالمحبّ له - جَلّ وعلا - يقُولها الشافعيّ :

تعْصي الإله وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ • هَذَا لَعَمْرِي في القِياسِ بَديعُ

لو كانَ حُبُّكَ صادقا لأطعْتَهُ • إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطيعُ

جعل الله عَزَّ وجلّ اتباع سيّدنا رسُول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِه وصَحبه وسلّم – آية فتية الدلالة على أني لله تعالى محبّ - وفي هذا من تكريم سيّدنا رسُول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِه وصَحبه وسلّم – ما فيه: جعل اتباعه آية محبة العبد الله تعالى التي يترتب عليها محبة الله تعالى له، وإذا ما أحبّ الله تعالى عبده كان له من الله تعالى ما يُحبّ ،وقد بين شيئًا من ذلك الحديثُ القدسي .

روى البخاري في كتاب «الرّقاق» بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رَضِىَ الله عنه - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَىَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَىَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا

أَخْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَىْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » .

***

ومن جوامع الكلم التي لا طاقة لي بتفصيل ما فيها ما رواه البخاري في كتاب «الرِّقاق» بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم :« إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » .

قوله هذا كاشفٌ عن سببِ الفساد المتكاثر في كلّ بقعةٍ من بقاع الأرض حتّى في دور العبادة والعلمِ تجدُ الأمر غالبًا فيها وقد أسند إلى غيرِ أهلِهِ ، فما مكان إلا وفيه فساد مستطير،وما من فسادٍ إلا وكانَ سببه أن أسند أمرٌ إلى غيرِ أهلِهِ.

وقد هدَّد سيّدنا رسُول اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم - من تولى عملا ، وهُو يعلمُ أنّه ليس له بأهل . روى أبو بكر محمد بن هارون الرُّوياني (المتوفى: ٣٠٧هـ)[١] في مسنده بسندهِ عن أبي موسَى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنه قال «مَنْ تَوَلَّى عَمَلًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ لِذَلِكَ الْعَمَلِ بِأَهْلٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»

---

[١]) ترجمته في سير أعلام النبلاء، تأليف : الشمس الذهبي: ابي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت : ٧٤٨هـ) تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ،الناشر : مؤسسة الرسالة ،الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هـ ,ج:١٤ص٥٠٧

ومن شاء أن يستقرئ الجمل النبوية المكنوز فيها فيوضٌ من معاني الهدَى التي لا تستقيم حركةُ الحَياة إلا بها حاضرة شهودًا ،ولا منجاة لأحد إلا بالأخذ بها أخْذًا فتيًّا. فإنه لا يكاد يطيقُ ، فكيف بمن شاء تفصيلًا، فكيف بمن شاء تأدّبا بكل ما في تلك الجمل؟ !!!

******

ومن سماتِ الأسلوبيّة لبيانه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِه وصَحبه وسلّم – أنّه يَجعل – غالبًا – الْجمل المكونةُ لحديثه النبويّ متسِمةً بسِمتيْن رئيستيْنِ :

أنَّ كلّ جملةٍ إذا أفردتْ عن أترابها، وأقيمت خارج سِياقِها ، فإنّها لا تُحرمك من عطائِها، فإذا ضممتها إلى أترابها في سِيَاقِها كان لها مع أترابِها عطاءٌ آخر.

تبصّر متدبرًا متذوقًا متأدبًا ماروا ه البخاري في كتاب «الجمعة» «الاستقراض» «العتق» «الوصايا » «النكاح» «الإحكام» ومسْلمٌ في كتابِ«الإمارة» بسندهما عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإِمَامُ رَاعٍ ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ فِى أَهْلِهِ رَاعٍ ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ فِى بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهْىَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِى مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » . قَالَ فَسَمِعْتُ هَؤُلاَءِ مِنْ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -

وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « وَالرَّجُلُ فِى مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » . ([1])

كلّ جملة إن شئت إفرادها جاءك منها فريدة ما يكفيك ويُغنيك ، ويغني بك. وعلى الرغم من ذلك أنت تجد في نسقها معاني زائدة على ما فيها كل جملة فريدة.

أرأيت إلى موقعِ المرأة والخادم من المسؤولية، أي تكريم هذا . جعلهما راعيين مسؤولَيْن، فكل راعٍ ومرعيّ . إنه التكافلُ من جهةٍ،وإنه التستوي في الوزيفة من أخرى، فليس في الأمة من هو هملٌ . من يُمكن أن يُستغنى عنه بغيره. من وجوده عالة على غيره

« إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ».وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ.

(متفق عليْهِ)

وَكَأنه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِه وصَحبه وسلّم – يَهدِي بهذا إلى أن يَكونَ كلُّ مسلم كمثلِها : لَه فِي ذاتِه فريدًا قيمةً ونفعًا ،وفي وجودِه

---

[1]) في إيراد البخاري الحديث في ستة أبواب إيماء إلى ما في هذا الحديث من العطايا المكنونة التي تصلح لمواضِع من التشريع عدة،وهذا يومئ به إلى اتساعِ المعنى البيياني لأحاديثِ سيّدنا رسُول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِه وصَحبِهِ وسَلّم -

ومسلك البخاري هذا يحسنُ أن يعمد إليه طالبُ علم ليبرز الدال في الحديث على الباب الذي أقامه البخاري فيه ، ثم يبينُ عن مستوى دلالته عليه ،وهل في الحديث ما يدل على موضوعات لأبواب أخر لم يصنفه البخاري فيها، ثم يعمد إلى مناظرة ذلك بتصنيفات الآخرين هذا الحديث ،وما بين منهجهم ومنهاج البخاري من فروق.

مثل هذا معين للباحث العلمي أن يُحسن مهارة «التصنيف»: أعني تصنيف القضَايا والمسائل في الفصُول والأبواب، فذها عمل مهمّ جدًا في البحث ،وكلما كان التصنيف لطيفًا كان ذلك طريفًا، فذلك أمرٌ ينتمي إلى ما نسميه «أنساب المعاني »

الْجمعيّ قيمةً أعلَى،ونفعًا أعمّ ، هُو فريدًا معطاءٌ ، وهو جميعًا مع اقرانِهِ فيّتضّ بعطاءلتٍ تترا
جعلَ مِنهاجَ حياة جمله في بيانه جُريدةٌ وجمِيعَةٌ صُورة لما يجبُ أن يكونَ عَلَيْهِ منْهاجُ كل مسْلم ،وكانّه يقُول له كنْ جملةً فِي بيانٍ بليغٍ كميلٍ حيثُ كن)تَ كنْتَ غيثًا رحومًا.
وكأنهُ يقُول لكلّ مسْلم لا تجعلنّ قِيامك برسَالتك مرهونًا بوجودك الجمعي . إن لَم يتحقّق لك كنت عقيمًا.
أقِم رسَالتك الاستخلافية الإعمارية للحياةِ كونًا وإنسانًا ولو كنت وحدك كان أبوك آدم عَلَيْهِ السلام وحده، وقائمًا برسَالتِه.
لاتَجْعلنّ فرادتك في حالٍ أو مقام عائقًا لك عن أن تَسْعَى إلَى إخراجِ النَّاسِ مِن الظُلماتِ إلى النّور ، وأن تسْعَى إلى أن تَنْصُرَ الحقّ بالحقِّ أيًا كان صَاحبُه ،وأنْ تنشُرَ الخيرَ في النّاسِ كلِّ النّاس إيمانًا واحتِسَابًا .
******
ومن سِمات بيانه الْعامة القائمة فيه جميعا أنّ كل سَميعٍ له يكاد يوقن أنّه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِه وصَحبه وسلّم – لزمانه هو، وأنه قائمٌ فينا ينظر أمرنا ، فيقدم له ما يُخرجه من الظُّلمات إلى النور. ولو أنّك قرأت بيانه في ضَوء ما يُحيط بك ، لتبيَّن لك أنه يُخاطبك وقومك ، ويأخذ بيدك ويدهم ليخرجكم مما أنتم فيه إلى ما هو الأسمى.
وكأنّ أحداث كلّ عصرٍ وكلِّ مصر هي المستخرجة ما في بيانه أو هي المشيرة إليْه ، وكأنه خزانة غذاء ودواء لا يُعلم ما فيها إلا إذا حلّت

مسغبة أو مرض ، فيكون بهما مستخرجُ ما في بيانِه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم –

وهذا يهدّى إلى أنّه كلما خزَبنا أمر علينا أن نفزع مستبصرين إلى بيانِه - عليْه وعلى آله وصحبه الصّلاة والسّلام - وما كان هذا شأنه كان ضرورة أن يكون منهاج الإبانة عنه متسقًا مع هذه الحلية ، فتكونُ العبارة متسعةً الدلالة لاتساعِ المعنى ، ومتجددة الدلالة لتجدد المعنى الذي تصوره. ومعنى تجدّد المعنى تجدّده في فؤاد المتلقّي الرشيد لاكتسابه مهارات وأدوات صلحت لاستخراج ما في البيان من اللطائفِ.

رَوى البخاريّ في كتاب «القدر» بسنده عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ رَضِيَ الله عنه - عَنِ النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلاَّ لَهُ بِطَانَتَانِ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ » .

هذا بيان هو الحاضر في كل عصرٍ ومصر، فحيثُ رأيت ذا ولية قد سلك سبيلَ الحُسنى فاعلمن أنّه أحسن بتوفيق ربّه تعالى اصطفاء بطانته ،وإن رأيت الأخرى ، فهو الذي تخلى عنه ربّه لأمر فيه هو، فارتضى لنفسِه بطانة سوء.

أمرٌ لا يُمكن لأحد أن يأتي بحالةٍ واحدةٍ تنقضه وكأنّه من أفق الغيب، بل هو حقًا من أفقِ الغيب الذي ليس له - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم - أن يأتي به من عنده ، ما هو بثمرة حكمة مُعلّمةٍ . انه الوحْي .

ولمّا كان بيانه - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم – حقه أن يُحفظ كما نطقَ به،وأن يُحمل إلى كل العبادِ في كل زمان ومكان،وكان قد حثّ

على ذلك ،وأغرى كما تراه فيما رواه أبو داود في كتاب «العلم» من سننه بسندِه عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ

- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ »

وكان من جليل رحمته وجميلها أنه يصوغ بيانه على نحو يُعين من شاء الحفظ على أن يعقل ويحفظ ويستحضر دون عنت، فكان كثيرٌ من بيانه قد أقامه على أنماط متقاربة، لتتداعى وتتنادى، فيكون أيسر على الحافظ والمستذكر.

يقول شيخنا في تدبره قول سيدنا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم : « لاَ يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ». :

" في هذا الحديثِ ملمحٌ من ملامح فصاحته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم – وهو تشابه الأبنيةِ وسلاستها ، وعذوبتها مع الدّقةِ البالغةِ ، والعمقِ البالغِ، فالجمل الثلاثةُ الأولى ... أفرغتْ إفراغًا واحدًا ، وتجاوزتْ التشابهَ في سَمتِ البناءِ وحذوه إلى التوحد ، وكأنه - عَليه السّلام – لمّا جرتْ الأولَى على لسانِه سَهلةً زهوةً بالغةَ الدقةِ وضبط المكعنى، أجْرَى الْجملتَيْنِ التّاليتيْنِ على حَذوها وسَمتها ،وهذا يقرب هذه المعانِي في هذا الأسلوبِ إلى الْقُلوبِ ،ويشِيعها في الأمةِ بوضُوحه الشّديد وبيانِه العذب السهل ،وهذا من سمت كلامِ النبوةِ.

ويلاحظ أنّ معانِي الجملِ الثّلاثةِ متباعِدةٌ ، فالأولى فِي الأعراضِ ، والثّانيةُ في الأموالِ ، والثّالثة في العقول ، ولكنّ شَريفَ النَّظمِ ألف المُختلف ، وجعلَ المُختلِقَ مؤتلِفًا ،وهذا من السّهلِ الْممتنعِ ،.رحم الله أبا بكر الباقلانيّ ، فهذا من عِلمِه "([1])

ومنالسمات الظاهرة الحاضرة كثيرًا في بيانه عهلى نحو لا ينكن لدارسٍ أن يجهله، أنمه ينبئ بالمعنى إجمالًا ، ثم يفصله ، فهو يورد عليك المعنى مجملًا يشوقك ثم يأتيك به مفصّلا ، فيأتي التفصيل من بعد أن تاقيت إليْه النفسُ ، فيقع فيها موقع المتشوف إليه، فيتمكن منها، وهذا التمكين للمعاني هو عمود الأمر في رسالة" التبليغ" التي هي رسالة كل الرسل .

وقد قرر الله - سُبحانَه وتَعالى – هذا في مواضع عدة من كتابه على ما يجغي على قارئه ([2])

هذا الرسالة تقتضي أن يكون بيانه ما أوحي إليه نت غير القرآن متسمًا بسماتٍ تحقق للمعنى الموحى إليْه تمكينه وتحسينه وتزيينه وتفعيلَه في أفئدة الناسِ أجمعين في كلّ عصر ومصر حتّى قيام الساعة. ولذا كثر في

---

[1]) شرح أحاديث من صَحيح مسلمٍ .دراسةٌ في سمت الكلامِ الأوّل. الطبعةُ الأولى:. عام: ١٤٣٦هـ مكتبة وهبة – القاهرة .ج:١ص٢٨- ٢٩

[2]) منها قوله تعالى (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (آل عمران:٢٠)

) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (المائدة ٩٢)

)مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (المائدة:٩٩)

)فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (النحل:٣٥)

)فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (النحل:٨٢)

(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)(النور:٥٤)

(وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (يس: ١٧)

بيانه على نحو جد ظاهرٍ سِمة الإجمال ثم التفصيل، والتكرار، والإيجاز على نحو ما تراه في ما رواه الشيحان بسندهما بسنديهما عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ - رَضِي الله عنهما - يَقُولُ :

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِى أَهْلِهِ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِى بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِى مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ - قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ - وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِى مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »

فأنت إاذ سمعت أو قرأت قوله « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » كنت مقتدرًا على أن تستبصر،وأن تفصل المجمل كفاك منه ذلك ، وامكنك أن تنتقل بهذه الجملة، فتنزلها على كلّ من رأت عينك من بني آدم عَلَيْهِ السّلام ، لإاذ جاءك تفصيله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم – ر أيت أنه اقامها على مستوى الأمة « الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » فرعيتُه الأمةكلها، وهومسؤول عنها جميعا،وليس عن بطانته وحدها أو مدينته وحدها بل كل من هو بهم وفيهم أمامٌ فلو كان حظُّ البعيد من رعيته مندون حظ القريب منها قيد أنملة، فإنما هو الظلوم ، فتظر في حال الأئمة في أقطار الأمة الإسلامية كيغ حال رعايتهم رعيتهم ،أترى فيهم ناجيًا .

وحقا قالها - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم – وهو لا يقول إلا حقا ٧١٤٨ - حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِى ذِئْبٍ عَنْ سَعِيدٍ

الْمَقْبُرِىِّ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ » . (رواه البخاري من حديث أبي هريى - رَضِيَ اللهُ عنه - في كتاب «الأحكام » من صَحيحه

وروى مسلم في صحيه من كتاب «الإمارة» ٤٨٢٣بسنده عَنْ أَبِى ذَرٍّ - رَضِيَ اللهُ عنه - قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِى قَالَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِى ثُمَّ قَالَ « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْىٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِى عَلَيْهِ فِيهَا ».

وفي الباب نفسِه عَنْ أَبِى ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّى أَرَاكَ ضَعِيفًا وَإِنِّى أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِى لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ ».

إنّها المسؤولية العظمى،وبرغم من ذلك لاترى شيئًا يحرص عليه عظم الناس إلاأولي النهى كمثل الإمارة، ولو في سفاسف الأعمال . المهم أن يتأمّر !!! ([1])

قلت بدأ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم - تفصيل الإجمال بشأن رعاية الأمة، ثم تلاه ببيان رعاية الأسرة، وكأن الأسرة هي الأمة مصغرة، وكأنها حقل تدريبٍ وتجربة جعل الرجل في الأسرة بمثابةالإمامِ

---

[1]) غير قليل من اساتذة الكليات عينُه على كرسي العمادة ، لا يرفعها عنه ، وغير قليل من عمداء الكليات عينُه على كرسيّ رئيس الجامعة ، وهكذا وكأن الله - تَعَالَى - اشترط عليهم لدخول الجنة أن تكون عميدًا أو رئيسًا للجامعة .
يفعلون ذلك برغم أنهم يعدون أنفسهم من أهل العلم، ولو صدقوا لكان فرارهم من تلك الكراسي كمثل فرارهم من النار،ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

في الإمة،وجعل سائر الأسرة بمثامة أبناء الأكة بأوطانها وقبائلها، فجعل لكل مسؤولية،وكلا راعيًا وكلًا مسؤولا،
ولما كان المعنى في هذا الحديث ذي المعنى الإلهي بالغالأهمية للأمة جمعاء جعل طليعته إجملا ،وخاتمته إجمالًا ،وما بين الإجمالين التفصيل، فاجتمع له إجمالٌ وتقصي، تكرار، بلإن شئت قلت كرر المعنى ثلاث مرات : مرتين في صورة واحدة مجملة في الطليغة والخاتمة،ومرة في صورة مفصلة ،وكل ذلك سبيل من سل تمكين المعنى وتحسينه وتزيينه وتفعيله في الأفئدة، فأيما غفل فؤادٌ عنما جاء فيه، فهو فؤاد أترعته الغفلة،وأحاطت به أيضًا
وأنت ترى سيدنا رسول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِه وصَحبه وسلّم – قد قام برعاية المعنى الإلهي في هذاالحدجيثِ رعاية بالغة لما له من الأهمية الفتية الحسني في مسير هذه الأمة، فضرب لنا مثلً شهوديًا على حسن الرعاية، برعايته ما كلف برعايته :" المعنى الإلهي" الموحى إليه، فبلغع إليها بأسلوب يحقق لهذا المعنى حقَّه ، فكان في هذا النبأ الكريم تطبيقه العمليّ .
قوله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِه وصَحبه وسلّم -:« وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » من العبارات التي تكاد تحرم عينك النوم إلا اضطرارًا فمن تراه مستغرقًا في ثباته فهو لا يخرج عن واحدٍ من ثلاثة: إما أنه لم يبلغه الحديث أو بلغه ،ولم يفقه، وإمّا أنّه فاقد الشعور ،وإما أنه مكذبه ، فهو من هازم النوم وداحره عن الأعين . ولكن أكثر الناس نائمون .

وفي كا رواه الشيخان بسندهما عَنْ أَنَسٍ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِى النَّارِ » . أطرافه ١٦ ، ٦٠٤١ ، ٦٩٤١ - تحفة ١٢٥٥

البخاري:المظالم

٢٤٤٢ - حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِمًا أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِى حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . طرفه ٦٩٥١ - تحفة ٦٨٧٧

وكثيرًا ما كان يسلك سبيل الاستفهام ليقرر المعنى في أفئدة الناس، كما تراه في خطبة الوداع،

وكثيرًا ما يتخذ من المشاهد سبيلًا إلى تمكين المعانيس النفس كما تراه في ما رواه مسلم في كتاب «الزهد والرقائق» بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ « أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ ؟». فَقَالُوا : مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَىْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ ؟ . قَالَ : « أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ ؟ ». قَالُوا : وَاللَّهِ ، لَوْ

كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ ؛ لأَنَّهُ أَسَكُّ ، فَكَيْفَ ، وَهُوَ مَيِّتٌ ؟ فَقَالَ : «فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ ».

هذه الجملة التي هي البغية : «فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ ». أتى بها - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آله وصَحبه وسلّم – من بعد أن استثار الأبصار والأسماع والبصائر لتكون عثرة في النفوسَ والعقول والأفئدة، فإذا ما خليلت أحدٌ الدنيا بلُعاعتها واستحضر قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آله وصَحبه وسلّم - «فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ ». وكان فيه ذرة من عقلٍ فإنه لا يُمكنه أن يلتفت إلى لعاعة الدنيا، وإن عظمتْ، وما افتتانا بالدنيا إلا من غيابِ هذه الجملة عن أفئدتنا ووعينا.

إن لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آله وصَحبه وسلّم – مساللك عديدةمتنوعة يمكن فيها المعاني في الأفئدجة،وهذا ما اقتضته المهمة التبليغية الملقاة على كاهِله،وكاهلِ ورثته من بعده. هذه المهمة كان لها أثرٌ عظيم في اتخاذ سيّدنا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آله وصَحبه وسلّم – منهاج إبانة يتسم به ما جاءنا عنه،والسعي إلى استقراء مسالكه في تمكين الماعني وتنويرها باب من العلم حقيقٌ على العقلِ البلاغي تالعربي أن يفرغَ له ليوفيه بعضَ حقّه، ففي ذلك الوفاء ما يُعننا نحن طلاب العلم على حسن الفهم عنه أولاً ثم السعي إلىالاقتداء به في تبليغ الهدَى إلى الناس كل الناس مهما أختلفت أمصارهم وألسنتهم وثقالفتهم،وأحوالهم النفسية والخلقية،وموقفهم من الحقّ والخير سعيًا إلى أخراجهم من الظلمات إلى النور٢٩٤٢ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ الْقَعْنَبِىُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِى حَازِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ -

رضي الله عنه - سَمِعَ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ « لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ » . فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى ، فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى فَقَالَ « أَيْنَ عَلِيٌّ » . فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ ، فَأَمَرَ فَدُعِيَ لَهُ ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ ، فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ شَىْءٌ فَقَالَ نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا . فَقَالَ « فَوَاللهِ لأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » . (متفق عليه)

ومن سِمات بيانه التبليغي أنه وإن بني على الإيجاز الحكيم المحكم فإن من المعاني والمقاصد ما يقتضي البسط ، فيبسط البيان بسطًا إن نظرت فيه رأيت أنه في ظاهره بسيط مديد ،وإن نظرت في ما يتوافد ويترادف على فؤادك إن كان رشيدًا حكيمًا مستبصرًا لا يرضى بظاهر البيان،وقريب المعاني رأيت من الكوثر ما إذا قيست صورته التي سمعتْ أذنك به رأت الصورة بالغة الوجازة ،و:انه فيه قطرة من محيط، فبسط في رحمه إيجازٌ حكيك محكم بليغ بالغما يراد به أن يبلغ.

ولذا تراه في بعضِ السيقات يدع الإنباء عن بعضِ المعاني تلويحًا ، وقد أدركها الفؤاد البقظ مماصرح به، فإذا هو - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وَصَحْبه وسلَّم - يجمع للمعنيين التصريح ، ليكونا عدلين في سمعك وفؤادك. كيما تنظر فيهما معًا على درجةٍ سواء فتتاخ ذموقفك على بينة. وهذا من فيضِ رأفته ورحمته بك. فصلّ عل]ءه ما وسعك البجهد والوقت،وإنك إن فعلت فما وفيت معاشر ما عليك له - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحْبه وسلَّم –

رزى ابن ماجه في «الزهد» من سننه بسنده ٤٤٠٩ - حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِى شَيْبَةَ حَدَّثَنَا شَبَابَةُ عَنِ ابْنِ أَبِى ذِئْبٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ : « إِنَّ الْمَيِّتَ يَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِى قَبْرِهِ غَيْرَ فَزِعٍ وَلاَ مَشْعُوفٍ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : فِيمَ كُنْتَ فَيَقُولُ : كُنْتُ فِى الإِسْلاَمِ. فَيُقَالُ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ. فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ اللَّهَ فَيَقُولُ : مَا يَنْبَغِى لأَحَدٍ أَنْ يَرَى اللَّهَ. فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيُقَالُ لَهُ : انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللَّهُ. ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ الْجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا فَيُقَالُ لَهُ : هَذَا مَقْعَدُكَ. وَيُقَالُ لَهُ : عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ وَعَلَيْهِ مُتَّ وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السُّوءُ فِى قَبْرِهِ فَزِعًا مَشْعُوفًا فَيُقَالُ لَهُ : فِيمَ كُنْتَ فَيَقُولُ : لاَ أَدْرِى. فَيُقَالُ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ فَيَقُولُ : سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلاً فَقُلْتُهُ. فَيُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الْجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا فَيُقَالُ لَهُ : انْظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ. ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيُقَالُ لَهُ : هَذَا مَقْعَدُكَ عَلَى الشَّكِّ كُنْتَ وَعَلَيْهِ مُتَّ وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ».

ورى أحمد في مسنده من حديثِ أم المؤمنين عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْها قَالَتْ : جَاءَتْ يَهُودِيَّةٌ ، فَاسْتَطْعَمَتْ عَلَى بَابِى ، فَقَالَتْ : أَطْعِمُونِى ، أَعَاذَكُمُ اللَّهُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ ، وَمِنْ فِتْنَةِ عَذَابِ الْقَبْرِ. قَالَتْ : فَلَمْ أَزَلْ أَحْبِسُهَا حَتَّى جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا تَقُولُ هَذِهِ الْيَهُودِيَّةُ قَالَ : « وَمَا تَقُولُ ». قُلْتُ : تَقُولُ أَعَاذَكُمُ اللَّهُ مِنْ

فِتْنَةِ الدَّجَّالِ وَمِنْ فِتْنَةِ عَذَابِ الْقَبْرِ. قَالَتْ عَائِشَةُ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَرَفَعَ يَدَيْهِ مَدًّا يَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ وَمِنْ فِتْنَةِ عَذَابِ الْقَبْرِ ثُمَّ قَالَ :

« أَمَّا فِتْنَةُ الدَّجَّالِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِىٌّ إِلاَّ قَدْ حَذَّرَ أُمَّتَهُ وَسَأُحَذِّرُكُمُوهُ تَحْذِيراً لَمْ يُحَذِّرْهُ نَبِىٌّ أُمَّتَهُ إِنَّهُ أَعْوَرُ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بِأَعْوَرَ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ. يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ. فَأَمَّا فِتْنَةُ الْقَبْرِ فَبِى تُفْتَنُونَ وَعَنِّى تُسْأَلُونَ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أُجْلِسَ فِى قَبْرِهِ غَيْرَ فَزِعٍ وَلاَ مَشْعُوفٍ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ فِيمَ كُنْتَ فَيَقُولُ فِى الإِسْلاَمِ. فَيُقَالُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِى كَانَ فِيكُمْ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَصَدَّقْنَاهُ. فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً فَيُقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا فَيُقَالُ لَهُ هَذَا مَقْعَدُكَ مِنْهَا. وَيُقَالُ عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ وَعَلَيْهِ مِتَّ وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءُ أُجْلِسَ فِى قَبْرِهِ فَزِعاً مَشْعُوفاً فَيُقَالُ لَهُ فِيمَ كُنْتَ فَيَقُولُ لاَ أَدْرِى. فَيُقَالُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِى كَانَ فِيكُمْ فَيَقُولُ سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلاً فَقُلْتُ كَمَا قَالُوا. فَتُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ الْجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا فَيُقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْكَ. ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَيُقَالُ لَهُ هَذَا مَقْعَدُكَ مِنْهَا كُنْتَ عَلَى الشَّكِّ وَعَلَيْهِ مِتَّ وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ يُعَذَّبُ.

كان بملك سيّدنا رسُول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِه وصَحبه وسلّم - أن يستغني بالتّصريح بما يكون مع العبد الصالح عن التصريح بما يكون مع

الرجل السوء، فكلُّ سميع يدرك ما يكون معه ممّا سمع من شأن الرجل الصّالح ، وما ذاك إلا ليكون شأن الرجلين قائمين في وعي السامع على درجةٍ سواء، فليس الإعلام بشأن أحدهما أولى من الإعلام بشأن الآخر ، فكانت فريضة" التبليغِ" مقتضية أن يكون سبيل الإبانة عنهما سواء.

فصرح بما فهم تلويحًا تمكينًا للمعنى. حتى يملأ التصريح سمعك،كما يملأ فؤادك.

وهذا السبيل تراه في القرآن الكريم في مواضع، يصرح بما يُمكن فهمه تلويحا.

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون)[البقرة:١٨٥[

و (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُون)[البقرة:٢١٦[

كان يمكن في غير القرآن أن يقال لا يريد الله بكم البسر ،بدلا من ، يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وكان يمكن أن يكتفي بقوله (والله يعلم) فالتقديم هنا مفيد للحصر) أو يقال ما يعلم ذلك إلا الله .

فالدلالة تصريحا ا, تلويحًا اليذ يقتضي إنما هو حال المعنى أولًا ثم القصد من الإنباءِ . وحين يقتضي المقام البسط ، فهو البلاغة،والإيجاز حين ذاك عِيٌّ. والبسط في مثل هذا تجد ما يحمله أضعاف أضغاف ما تسمع أذنك

مدلولاً عليه بطريقِ الدلالة، (اللزوم) فكيف بما كان طريقه «الإفادة» ل «الدلالة» وهو مما لا سبيل إلى استقرائه والإحاطةِ به ؟ إنّهُ مُتكاثرٌ في الفؤاد الرشيد.

وكذلك سمات بيانه متكاثرة لاسبيل لمثلي أن يستحضد معشارها مما يحملُ على أن ينتقل إلى القول في محورٍ آخر.

المحور الثالث

مفتاح التلقي من بيانِه ﷺ

لكّل خزانةٍ مفتاحُها وعلى عظمِ ما يكونُ مكنوزًا فيها يكون دقةُ مفتاحِها ، ومَن شاهدَ خزانةً وهو لا يملِك مفتاحَها أو لا يعرفُ الطّريقَ إليْه ، فما شاهد شيئًا ـ حقيقةً ـ ولا سبيلَ إلى التّوقفِ في التّسْليمِ بها فضْلًا عَن التّردّد فضلًا عَن المصادَمةِ.

ومِن الخَزائنَ ما يُمكنُ كَسْرُه ، فيُستَلَبُ مَكْنُوزُها، ومِنْها ما لا سبيلَ إلى ذلِك ، ولَو اجْتمعَ أهلُ الأرضِ على ذلك.

وكلّ خِزانةٍ مكنوزُها غذاءُالنُّفوسِ والعُقولِ والقُلوبِ وشِفاؤها وهَناؤها هِي العَصِيّةُ على الكَسر ـ لا سبيلَ إلى ما فيها إلا بمفتاحها ، وليس كلٌّ أهلًا لأن يُوتَى ذلك المِفتاح. الله تعالى أعلمُ بِمَن هُو أهلٌ لأن يُوتَى ذلك المَفتاح.

يقولُ الحق سبحانه وتعالى :(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)(الأعراف:١٤٦)

مِن وجوه معنى الصّرف في الآية : الصّرفُ عن تلقّي ما فيها من معاني الهدَى الإحسانية الّتي ليس غيرُها غذاءَ النّفوسِ العقول والقلوبِ والأرواح وشِفاءَها وهناءَها

••••••

ومن جليل الخزائن خزانة "«التَّلَقِّي عَن سيِّدِنا رسولِ الله ﷺ » ولها مفتاحها.

مفتاح التلقّي عنه ﷺ فيك أنتَ، أودَعَهُ اللهُ تعالَى فيك كَي لا يَحمِلك علَى أنْ تبْحثَ عنه خارجًها. يريدك ﷺ أن لا تغيبَ عن نفسِك ، وأن لا تعيشَ في غيرِك ، فليس غيرُك أولَى بك ، وإلّا كان عقُوقًا. هِيَ الأَوْلَى بِكَ « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا ». (مسلم: الزكاة –ح: ٢٣٦٠) (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ}[الذاريات:٢١]

فيك أنت أودع الله تعالَى مفتاحَ جنَّتك ، ومفاتِح نارك ، فخُذْ ما ترضَاهُ لَها ، فإنْ كُنْتَ لا تَعْلَمُ مَا فِيك أوَ يليقُ بك أنْ تَزعُمَ أنَكَ الْمُقْتَدِرُ عَلَى أنْ تَعْلَمَ مَا فِي غَيْرِكَ ؟

لا يَقُولُها مَنْ لَه ذرّةٌ مِنْ عَقْلٍ أوْ حَياءٍ .

فِيكَ أنتَ مفْتاحُ ما تريدُ . تريدُ أن تَتَلَقَّى عَنْه ﷺ فابْحثْ عَنْ مِفتَاحِهِ فِيكَ :

تَحقّقْ أوّلًا عَنكَ فِي هدْيِهِ وَعَنْ هَدْيِهِ فِيك . أيْن انت في هدْيه ، وأيْن هَديُك فيك. أيْن أنتَ مِنْهُ وأيْن هُو منْك . فرقٌ بيْن الوُجودَيْن :

الثّانِي مُتولّدٌ مِن كمالِ تحقّقِ الأوّلِ وإحاطتِه وإحكامِه وَدَيْمُومِيتِه.

أوَ تعلَمُ مِقدارَ حاجتك إلَيْهِ ؟ أوَ تَعلَمُ أيْن أنتَ واجدٌ ما أنْتَ إلَيْهِ مُحتاج إنْ كنتَ لا تعلَمُ ، فكَيْفَ لَك أن تَتلقّى مَا لا تَعْلمُ مِمّن لا تَعْلَمُ ؟

أوَ لا تَرى أنّ مثلَ هذا حقُّه ألّا يَكونَ أعجوبةَ الزّمانِ ، بلْ أضْحوكته .؟ أيَكونُ فِي النّاسِ مَن يَتلقّى ما لا يَعلَم مِمنْ لا يَعلم. ؟!!!

إذا الْتفتَّ عَن نفسِك إلى ما هُو خارُجها ، فإنه لَنْ يتأتّى لَك أنْ تَعلَمَ شَيْئًا مِمّا يَجبُ عَليْك أن تعْلَمَ ؛ لأنَّ فِي عِلْمِهِ أوّلاً عِلمًا مُحققًا صريحًا نصوحًا اسَاسَ كلِّ شَيْءٍ، وحقًا قال الْحكيم مؤيّدًا«مَنْ عَرَفَ نفْسَه عَرَفَ ربّهُ» .

أقربُ الناسِ إلَى رَبّهِ أعْلَمُهم بنفسِه ، وأجهَلُهمْ بِها أبْعدُهمْ عَنْ ربِّهِ تعالى.

وأعرفُ الناس بربه هو الأعرف برسُوله ﷺ

ما كان الله ﷻ وهو الذي استفتح كتابَه بقوله (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم • الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين الرَّحْمنِ الرَّحِيم مَـلِكِ يَوْمِ الدِّين)[الفاتحة:١ -٤] ليجعلَ مفتاحَ معرفتِك بك مِن خارجِك.

فِي كلِّ شَهيقٍ ، وَكلّ زفيرٍ يَجْعَلُ اللهُ تَعالَى ما تَعرفُ به نَفسَك، ، ولكنّك تتغافلُ تغافلَ مَنْ لا يُرِيدُ أوْ تَغَافُلَ مَنْ يَخشَى أن يَعرفَ نفسَه ؛ لِيتّخذ منها مَوْقِفًا يُؤسّسُ عَلَيْهِ مَوقعَهُ منْ ربّهِ تَعالَى ،ومِنْ رَسُولِهِ ﷺ مفتاحُ الأمرِ كلّهِ فِي نفسِك أنتَ ، ومَا القرآنُ الْكريمُ والسّنةُ النّبويّةِ إلاّ نورٌ على الطّريقِ لِتَعرفَ نفسِك أوّلا ، فتتوصّل بذلِك إلى أنْ تعرفَ ربّك الّذِي خلقكَ له ﷻ جَلالُه ، وأنْ تعرفَ به رَسُولَه ﷺ الذي أرسلَه إلَيْك أسْوةً حَسَنةً .

قيمتُك مُرسَلا إلَيْك رسُولاً هو سيّد الرسل وسيد الْخلقِ ﷺ مِن قيمة مَن أرْسِلَ إلَيْك رسولاً ، وقيمتُه ﷺ من عظيمِ شأن مَن أرسَلَ ﷻ

تِلْك حقيقةٌ ، فهلْ لك أن تتَلبّث مليًا ، فتنظرَ فِي عظيمِ قدْرِ مَن أرْسِل إلَيْك ﷺ هاديك إلى صراطٍ مستقيمٍ ، وفي عظيمِ كمال جَلالٍ وجمالٍ مَن أرْسَلَهُ إلَيْك أسوة حسَنةً سبْحانَهُ وَبِحمْدِهِ.

تبصرْ متدبرًا مستطعمًا قول الله ﷻ وَجَلَّ - - تَعَالَى – الجاعلَه رأسَ المعنى القرآني ومختتَمَه في سورة (الشّورى) مخاطبًا رسُولَه ﷺ ومُمْتنًا علَى أُمّتِه والحياةِ كلّها:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ • صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)[الشورى: ٥٢ -٥٣].

تبصّرك هذه الآية في موقِعها من سياق السورةِ ملاحظًا صدر السورة (كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[الشّورى :٣] وقوله - تَعَالَى :(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) [الشّورَى:٧] وما بيْن قوله أولاً (أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) ثم قوله في ختام السورة (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا)،(وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا)

ففي هذا هداية لكَ كيفَ يستحيل القرآن لك نورًا.

علاقة نفسِك به قُرآنًا جموعًا لمعانِي الهُدَى الإحسانيّة، وعلاقة نفسِك بمَن أوحِي إليْه ﷺ الجاعله مرسلُه جلّ جَلاله يَهْدِي هداية إبانة بلسان حالِه ومقالِهِ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .

التلبث مستبصرًا متدبرًا في هذه الآيات وما ماثلها معينٌ لك أن تعرفَ نفسَك ، ذلك أنّه ما أوحاه إليْه على ما ذكر - عَزَّ وَعَلَا - إلّا لك أنتَ ؛ لتكونَ عبدًا عابدًا. القرآن أنزلَه الله ﷻ لك أنت على سيّدنا محمّد ﷺ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا}[النساء:١٧٤] ، { لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}[الأنبياء:١٠]

وأنت له ﷻ: (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ) وأنت ممّا في الأرض . فكما أنك عبدًا له كرهًا وقسرًا ، كنْ له عبدًا عابدًا متعبّدًا متزلفًا طوعًا وتشوقًا وتزلفًا، إنما شرفك في ذلك .

في نفسِك عبدًا عابدًا متزلّفًا متشوقًا متشرّفًا مفتاح التلقّي ، فلا تبحثنّ عنْه خارجها، فإنك لن تجدَ.

إنّك إن وجدته في نفسِك كان لك من خزائن معانيّ الهُدَى الإحسانية المكنوزة في بيانِه ﷻ ما يُصْلح نفسَك لربّك تَعَالَى فيصْلِحُ ﷻ لك الْحياةَ كلّها كونَها وإنسانَها . يُصْلِحُ لك الْملك والملكوت. ألا تصغي إلى قوله تَعَالَى :(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الجاثية:١٣] (١)

---

(١) لن تحسن استبصار ما في هذه الآية منْ معاني الهدَى الإحسانية إلا إذا لاحظت مَا بيْن قوله - تَعَالَى : (سَخر لكم) وقوله (لقومٍ يتفكرون) ووجه إعرابه بقوله - تَعَالَى (لقوم) دون قولنا : لِمن يتفكرون أو للمُتفكرين أو للذين يتفكرون.

في قوله (قوم) تكليفٌ شريفٌ ثقيلٌ حملُه نبيلٌ عطاؤه. ثُمّ إذا ما لاحظت الإعراب بالفعل المضارع(يتفكرون) كان لك فوق ما كان لك قبلُ.

كلُّ كلمةٍ في هذه الآية رافدٌ من روافد المعانِي الإحسانية إلى قلبك في ذاتها أو صيغتها أو موقعها .

سَخرْ نفسَك له وحدَه ﷻ يمنحك مفتاح خزائن معاني الهدى الإحسانية التي لا تتناهى، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْها الْعُلَمَاءُ وَلاَ تَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلاَ تَنْقَضِى عَجَائِبُهَا. إن سخَّرت نفسَك له وحده ﷻ سخَّر لك ما في السمواتِ وما فِي الأرضِ وما بيْنهما. تبصّر كيف يريدك أن تكون أنت المسخر له وحده ، وأن يكون كل ما عداك من العالمين مسخرًا لك.

أرأيتَ إلى مثوبتك الحسنى على تسخير نفسِك له عَزّ وجلّ . أرأيْتَ كمْ هي عليّة القدر نفسك إن كنت المسخرها لخالقها. هي مسخرة له قدرًا، وهو يريدك أن تجعلها مسخرة له طوعًا . ومثوبة ذلك كله لك أنت.

« ... يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئًا يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِى إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ ». (مسلم:البرّ والصلة والأدب. رقم: ٦٧٣٧)

هِيَ آيةٌ إن أحسنْتَ تبصُّرها رأيت عظيمَ المسؤولية الملقاة على عاتقك ، وعظيم تقصيرنا فيما نحن مكلفون به. وعلمت أيْضا المقتضِي ما نحن فيه الآن مِن الضّعف والضّعَةِ والاستخذاء .

كلُّ ذلك أنا وأنت وجميعنا عنه مسؤولون يوم القيامة .

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُون • وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُون • هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُون)[الجاثية: ٢٧ - ٢٩] .

[أسنان المفتاح]

قلت إن عمود المفتاح هو عرفانك بنفسك لتعرف ربك المرسل إليك رسُوله الأعظم،ومعرفتك بربك ﷻ تفضِي بك إلى معرفتك بمن أرسله إليك ربك ﷻ

ومن البيّن أنّ لكلّ مفتاحٍ أسنانًا وأسنان نفتاح التلقّي عن رسول الله ﷺ أجمعُها في أمريْن:

الأول : العلم الصحيح الصريح

والآخر : العمل الصّالح المصلح بهذا العلم.

أولا : أصول العلم في هذا الباب : باب التلقي عن سيدنا رسول الله ﷺ أربعة :

- العلمُ المحيطُ والحكيم بأصول الإبانة بلسان العربية الّذي هو لسان الوحي قرآنا وسنّة .
- العلم بأصول فقه العقيدة الإسلاميّة كما جاءت في بيان الوحي قرآنًا وسنةً ، لا كما جاءت في التّوركات العقلية في أسفار المتكلمين ([1])
- العلم بأصول فقه الشريعة الإسلامية .
- العلم بأصول فقه الإحسان في علاقة العبد بربه ﷻ وبالحياة كونها وإنسانها.

---

[1]) علم الكلام لا يصلح لمخاطبة الذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ ، فأولئك يُغنيه قال الله ﷻ وقال رسول الله ﷺ ،وليسوا قط بحاجة إلى الدليل العقليّ الذي هو صنعة علم الكلام، علم الكلام صالح مع من لا يؤمن بالله تعالى وبرسوله، فهو بحاجة إلى الدليل العقلي ، وهذا ما يُحققه علم الكلام،وفهو علم فريضة لمخاطبة غير المسلمين، ومناظرتهم ومحاجتهم فاستحضاره في مخاطبة المسلمين ضلالٌ مبين.

هذه هي أسنانُ مفتاح التَّلقي عن رسُول الله ﷺ

ثانيًا: أصول العمل الصالح المصلح اربعة : الأول والثاني شرط صحة،والثالث والرابع شرط حسن.

١) صفاءُ القصد(الإخلاص)

٢) واتباعُ الشرع

٣) وفتوة العزم : (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)(سورة مَريم:٦٥)

٤) وإتقان الصنع

فهذ الأربعة هي المحققة للعمل صلاحه في نفسِه وأصلاحه الحياة .

وأهل العلم يتفاضلون بحسب تحقق امتلاكهم هذا المفتاح واقتدارهم على أن يفتحوا به خزائن معاني الهدَى في بيانه ﷺ

وليس يخفى على مثلك أنّ ملازمة الصلاة السلام عليه ، فيكون لسانك وعقلك ونفيك وفؤادك رطبًا بهذه الصلاة تجعلك أهلًا لأن يجعلَ الله ﷻ هذا المفتاح في يمينك، وأيضا مما هو معين على أن يكون لك هذا المفتاح أن تقيم نفسك في سياق القول،وتتصور أن تشهده ﷺ بفؤادك وهو يقول هذا البيان العليّ . الحرصُ على هذا وإن كان في مبدإ الأمر ثقيلًا إلا أن الأصرار على تحقيقه يجعله يسيرًا فما من عصير عسير ثقيل إلا اسحال يسيرًا بفتوة العزم،وديموة الفعل. فاستَصحِبْ ذلك في مسيرك الدنيويّ تَستَصحَبْ في الفردوس الأعلى في مصيرك الأخرويّ .

المحور الرابع

بلاغته ﷺ ضرورةٌ دعويّة

ممّا هو أصلٌ قائمٌ في وعي كلّ عقيلٍ من طلاب العلم أنّ جوهر البلاغةَ مطابقة الكلامِ الفصيح لمقتضَى الحال. وأن مقتضيات حال المخاطب واحدًا من دون مقتضيات المخاطب جمعًا ، وأنَّ مقتضيات الخطاب الخاص في الأمر الخاصّ والغرض الخاصّ دون مقتضياتِ الخطاب العام في الأمر العام في الزمان العام المديد .

ومن البيّن أنّه لمّا كان الوجود الإنساني في مفتتحه قومًا واحدًا لهم رسُولهم ، ثم تشعّبوا أقوامًا ، فجعلَ لكلّ قومٍ رسولًا ، وجعلهم لهم دينًا واحدًا يضبطُ حركتهم جميعًا في علاقتهم بربهم ﷻ وجعل لكلٍّ شرعةً ومنهاجًا .(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[المائدة:٤٨]

لما كان ذلك جعلَ الوجود الإنسانيّ في مختتمِه قومًا واحدًا، فأرسل إليهم جميعًا صفوة رسُلِه وسيدَهم ﷺ وجعل رسالتَه رسالةً خاتمةً ، ليجمعَ النّاسَ جميعًا في سبيلٍ واحدٍ وشرعةٍ واحدةٍ، ليقول لهم كونوا عبادَ الله تعالى إخوانا .

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) [الأنعام:١٩]

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ • قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) [الأنبياء : ١٠٧ – ١٠٨]

{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان:١]

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}[سبأ:٢٨]

قال ﷺ:« أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِى نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِىَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِى أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِىَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِى ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِىُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » . (متفق عليْه)

وقال ﷺ: « كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِىٌّ خَلَفَهُ نَبِىٌّ وَإِنَّهُ لاَ نَبِىَّ بَعْدِى وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ فَتَكْثُرُ ». قَالُوا : فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ قَالَ :« فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ ».(متفق عليْهِ)

وقَالَ ﷺ:« وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِىٌّ وَلاَ نَصْرَانِىٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ».(مسْلم: الإيمان.رقم:٤٠٣)

وقَالَ ﷺ: « لاَ تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَىْءٍ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِى ». (مسند أحمد.رقم: ١٥٠٠٦)

لما كان ذلك كان ضرورةً أن يكونَ كتابُ الله تعالى صَالحًا لكلّ زمانٍ ومكانٍ ومصلِحًا كلّ زمانٍ ومكانٍ بما في بيانِه مِن معانٍ هي النّور لكل حادثةٍ فِي كلّ عصرٍ ومصر.

وكان كذلك بيانُ سيّدنا رسُولِ الله ﷺ الذي هو تبيينٌ للقرآن بيانًا متسِمًا بما يَصلُح لكلِّ زمانٍ ومكانٍ ويُصلِحُه ولا يُغنِي عَنه غيرُه مِن مُنتجِ العقولِ مهما عظمَ قدرُها عند أهلِها.([1])

هذا العمومُ في الرّسالةِ اقتضَى أن يكونَ بيانُه فِي جميعِ أمره متسِعًا الحياة كلّها ظاهرُها وخفيها خاصّها وعامّة حاضرها ومستقبلها إلى أن يرثَ الله تعالى الأرضَ ومَن عليها.

وأن يَجد فيه كلُّ مَدْعوٍ إلى الإسلامِ أيًّا كان زمانُه أو مكانُه أو عِرقه أو ثقافته ، أوْ لسانِه ما هو مُصلحٌ دنياه وأخراه ، فكلّ ما نَزل بالنّاسِ كلِّ النّاس نازلةٌ كان لها فِي بيانِه ما يُخرج مِن ظلماتِها وإنْ تكاثرتْ وتنوّعت النّور.

هذا الاتساعُ فِي إغناءِ كلِّ الثّقلين بما يُخرجُهم من الظّلمات إلى النّور فِي كلّ زمانٍ ومكانٍ يقتضِي أن يكون منهاجُ الإبانةِ النّبويّة فيهِ على وَفقه ، فلا يكونُ أحدٌ من النّاسِ كلّ النّاس فِي أيِّ أرضٍ أوْ زَمانٍ فِي حاجةٍ إلى

---

[1]) من رغب عما جاء به بيان الوحي قرآنا وسنة، ورغب في ما جاءت به عقول أعيان عصره اعتقادًا أنّه أنفع لزمانه ممّا جاء به بيان الوحي هو في الكفر المخرج من الملّة أدخل، فالقول بتاريخية بيان الوحي قرآنا وسنة عقيدة وشريعةً قولٌ مفضٍ بمن يقوله معتقدًا عدم صلاح بيان الوحي قرآنا وسنة في زمانه إلى الخروج من ملة الإسلام ، فاليحذر القائلون بذلك نومنرضي قولهمأو سالمه،ولم ينقضه أَنْ تُصِيبَهُمْ أَنْ تُصِيبَهُمْ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مهين.

ما يَهدِيه إلَى الْحسْنَى فِي علاقتِه بالله تعالى وبالحياة كلِّها على وَفق ما يُرضِي ربنا ﷺ إلّا وكان له فِي بيان الوَحي قُرآنا وسُنّة ما يُحقِّق لَه ذلِك النُور.

وهذا ما يَجعلُ لِبيانِه ﷺ خصوصيّة لا يُمكِن أن تَتحقُق فِي أيّ بيانٍ بَشريّ ، ولا يُمكِنُ أن تَتحقّق فِي بيانِ أيِّ نبيّ قبله ، فكلّهم إنما بيانهم على قدر حاجةِ أقامهم ،وزمان رسالتهم. لهذا كانت بلاغتُه ﷺ فريدةً مِن بيْن بلاغات الأنبياءِ مِن قبلُ ، وبلاغاتِ البَشرِ قاطِبةً وفقًا لمقتضِيلا انيزها،وفرادتها ،وكلها مقتضياتٌ دعويةٌ وظيفيّة..

بلاغته ﷺ ذات منهاج وسماتٍ فريدة استوجبها عموم رسالته .ومن أهمها أنه ليست سمات محصورة فيما هو خاصٌ بالإبانة بلسان العربيةِ، بل هي سماتٌ تبقَى،وإن ترجمت معاني هذا البيان إلى أي لغتة ترجمة صادقةٍ أمينة . هي سماتٌ قائمة في ما تلقاه وحيًا . في معاني بيانه ﷺ . فسمات بيانه القائمة بمعانيه هي للناس كلّ الناس يدركها كلّ من قرأ بيانه ﷺ بلسانٍ عربي أوأي لسانٍ ترجمتْ إليْه ترجمةً صَادقةً أمينة.([1])

---

[1]) فريضة عيْن على علماءِ هذِه الأمّة الذين يتقنون اللسان العربيّ ، ويفقهون منهاج الإبانةِ النبوية به ويتقنون لسانًا غيرَ عربيّ ، ويفقهون أصولَ الإبانةِ عنه أن يقوموا بفريضةِ التَّرجمةِ الصَّادقةِ الأمينة إلَى الألسنةِ الأعجمية ، وإيصالِ هذا إلى أهلِ ذلك اللسان، وأن يشرحُوا لهم هذا البيان النبويّ بألسنة أولئك القوم.

ذلك فريضة، وحقيق على الأزهر جامعًا وجامعةً أن يكونَ فيه مركزُ ترجمةِ معانِي الكتابِ والسّنة، وإلى لغات البشر أجمعين ، وترجمةِ شُروح هذا البيان ، وترجمةِ تراثِ الأمة الإسلامية إلى تلك اللغات.

وهذا الباب ما يزالُ القول فيه بكارًا : «أثر عموم الرسالة في منهاج الإبانةِ النبوية» ذلك مما يكاد يكونُ كأنه السكونُ عنه. أو الذي لم يبذل فيه معشار ما يجبُ أن يبذل ،ومثل هذا لا سبيل لواحدٍ أن يقوم به . إن هو إلا عمل جماعيّ يرفغ له الأعيان من أهل العلم بمناهج الإبانة ومقتضياتها.

عظم من تكلم في سمات بيانه ﷺ كانت عنايته بالسمات الأسلوبية المتعلقة بالإبانة باللسان العربي، وكنت العنية بسمات بيانه المتعلقة بمعانيه ومطابقتها لمقتضى حال عموم الدعوة وخلودها إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليْها.

في الاعتناء بهذا نقضٌ لدعوى أن رسالته ﷺ خاصة بقومه العرب ،ومن يتكلم باللسان العربيّ، ونقض للقول بتاريخية بيانه ﷺ ،ونقض للقول بالاستغناء بالقرآن عن بيانه ﷺ .

هذه ثلاثة مزاعم مهتوتة وأضاليل متهافتةٌ تجدُ من يتبناها،وينعق بها في محافل كثيرة داخل المجتمع المسلم وخارجه،وتجد بعض آذانٍ مصغية ، فحقّ أن نقوم لنقضها على الرّغم من أنها مهتوت متهافتة في ذاتها إلا أنه غتد ثلة هي كالحقّ .

عمومُ رسالته وأبديتها في الحياةِ الدنيا تقضِي بأن تكون بلاغته مطابقةً لمقتضيات هذا العموم والأبديّة سواء في ما يتعلق ببلاغته الأسلوبية أو بلاغة محتو هذا البيان النبوي ، وخصوصية اقتداره على إخراج كل

نحن أحوجُ إلى أن نترجمَ علومَنا وثقافتنا ، وما أنتجه العقل العربيّ المسلم إلى لغات أهلِ الأرض، وأن نقربه إليهم ، وأن ننشره فيهم بأثمان زهيدة يقدر عليها أكثر الناس، وأن نجعل ذلك من صهم«في سبيل » منأسهم «الزكاة» الثمانية .

نحن أحوج إلى ذلك من أن نترجم تراث غيرنا إلى لساننا .

متلقه بموضوعية،وتجرد من عصبية أو تأثر بشبهاتٍ أو شهوات أو معتقداتٍ مقدسة من الظُّلمات إلى النور

عن دراسة منهجية هذا الإخراج وعوامله في بيان النبوة ،وما يرجع منهاإلى الأسلوب،وما يرجع منها إلى المضمون أمرٌ جديرٌ بان تقومَ له ثلة منطلاب العلم الجادين المحتسبين الذي لا يستعجلون الثمرة، ولا يستثقلون الرسالة ، ولا يستكثرون ما ينفق في ذلك من العُمرِ والجُهدِ والزَّهادة في متاع الحياةِ الدنيا ولُعلعها.

المحور الخامس

مصادر بلاغتِه ﷺ

لسيدِنا رسُولِ اللهِ ﷺ ضربان من البيانِ :

الأول : هو البيان المُحمديّ

والآخر هو البيان النّبويّ.

أما الأوّل فهُو من جنس بيان قومِه مصدرًا ، ومنهاجَ إبانةٍ ومجالَ استعمالٍ ، ومغزًى.

مصدربيانه المحمّدي هو ما يصطنِعُه ﷺ ممّا اجتمع له مِن روافد المعرفة في فؤادِه المُحمديّ ، فهو كشأن قومه يستمدُّ معارفَهُ الحياتِية مِن عدَّةٍ روافد ، يستجمعها فِي فؤاده، يفكر فيها ، ويستجني حَسِينها ويستبعِدُ ما دُونَ ذلك، فيتشكّلُ في فؤادِه ممّا استحسَن معانٍ فِي شؤون الحياةِ ، يُعربُ عنها وَفق ما اكتسبَه من منهاجِ الإبانةِ عند قومه.

وهو فِي هذا البيانِ متأثرٌ بما يتأثّرُ به المُبينُ من قومِه. لا يفارقُهم إلّا في أنَّ كلَّ ما فِيه حقٌ وخيرٌ، ليْس فيه أثارةٌ من الّلغو فضلًا عن أن يكونَ فيه ممّا لا يليقُ بنبيلٍ أن يكونَ في بيانِه ، فالنّبلاءُ في كلّ عصرٍ ومصرٍ يَستنكِفون أن يجري على ألسنتهم وفي أسماعهم ما يليق.[1]

---

[1]) من سيمياء النّبلاء أنهم قليلو الكلام، وَلا يُسلمون آذانهم لكل ناطق، فإذا رأيت في غير مجالِ تحقِيق العلم وتقريبه ، ونصرة الحق،والأمر بالمعروفِ والنّهي عن المنكر كثير الكلامِ ، أو مرتادًا لمجالس الدهماء ، فاطمن أنه ليس من النّبلاء فِي شَيْءٍ. فاحذره .
« مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » (متفق عليه).

وهو ﷺ في ما قبل النّبوةِ كان سيد النبلاء من بني آدم. فخالقه إنما يؤهله لأنْ يكونَ سيّد الأنبياءِ ، فهو قبل المبعثِ سيد النّبلاء، ومن بعده سيد الأنبياء والمرسلين.

هذا البيان هو الذي بقِي معه غيرَ منازع منذ أن بدأ القول إلى أن بلغ الأربعين من عمره ، وبقي معه إلى أن ارتحل إلى الرفيق الأعلى مصنطحبًا نوعًا آخرَ من البيانِ هو البيانُ النّبوي.

حسن أن نسعَى إلى أن نستجمِعَ ما كانَ من بيانه ﷺ قبل النّبوة ، وما كان مِن بيانِه فِي غيرِ أمرِ الدّعوة بعد النّبوّة. للنّظر في خصَائصِ هذا البيان ، فنعلم معجمَه الكَلِمِي، ما كان فيه متداولاً شائعًا، وما ندر استعماله له ﷺ ، وتراكيبه، ومستوياتِ دلالات صوره على معانيه ، ومنهاج التّغني ببيانه ، ونحو ذلك وعلاقته ببيان قومِه قبل النّبوة ، فيم يتفقان وفي يفترقان .

ونعتي لهذا البيان بأنّه محمدِيٌ استحضر به ما يحملُه اسمه من مقومات المحمدية (كمال محموديته) أي هوالبيان الذي يحملُ كلّ سامعٍ أن ينعتَه بكلّ ما هو حميدٌ موضوعًا ومعنًى وصورة ومغزًى وأثرًا.

♦♦♦♦♦

وهذه الثلاثة حاضرة في عالم الكلام.: «فلاَ يُؤْذِ جَارَه»« فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » «فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » فمن تحدثه ، فإنّما هو جارُك، وإنّما هو ضيفُك ، فلا تؤذِه واكرمه ، فلا تسمعه إلا ما ينفعه.

ولو أنّا عاملنا من نخاطِبه بألسنتنا أوأقلامنا معاملة المُضَيِّفِ العَرَبِيّ المسلم ضيفَه لكان ذاك أعونَ علَى الْحسَى في جميعِ مجالات الحياة.

<u>والضرب الأخر</u> من بيانه ﷺ هو البيان النّبويّ، ونعته بـ«النّبويّ» كافٍ في أن يقُوم في فؤادِه أنّه ليس بيانًا بشريًا صرفًا كالذي كان منه قبل المبعثِ ، وكالذي يكون منه بعد المبعثِ في ما ليس من شؤون الدّعوةِ.
كلمة "نبويّ" ، تعربُ عن أنّه بيانٌ مُنبّأً بِهِ مِن قِبَلِ مَن أرسلَه رحمةً للعالمين.
(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧)([1])
مصدر هذا الضربِ من بيانه ﷺ إنّما هُو الوحيُ : وحي مضمونه :" معانيه" والوحي بها ذو صورٍ عدة ، بيْنا الْوحيُ بالقرآنِ معنًى وصورة وأداءً إنّما هو بطريقٍ واحدٍ . هو طريقُ سيدنا جبريل عليه السلام خاصة،

[1]) جاءت هذه الآية في سورة" الأنبياء" من بعد أن قص ﷺ نبا الأنبياء وأقوامهم بدءا من الآية (٤٨) إلى الآية(٩١) ثم جمع شأنَ سيدنا محمد ﷺ في هذه الآية (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧)وهي بما اتسمت به من إيجاز القصر لو شءنا تفصيل ما تضمنته لما اتسع لها العُمُر أوْ الجُهد .
جعل جميع أمره رسولًا رحمة للعالمين سواء فيما ظاهره محبوب نفسٍ أو غيره. فكلّ ما جاء به ﷺ هو رحمة ، وفي هذا تكليفٌ لكل من يعلم شيئًا من شأنِه وحاله أن يبحث فيه عن معالم الرّحمة للعالمين وملامحها، حتى في قتاله الذين يصدون عن سبيلِ اللهِ تعالى. فريضة عين على كل عقيل فهيم أن يجتهد في استبصار هذه الرحمة ،لا بالنسبةِ له وحده بل للعالمين. وهو ﷺ (بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)(التوبة) فجمعت رسالته الرحمةالعامةللعالمينوالرأفة والرحمة الخاصة لمن آمن به . ومعالم هذين لا بدّ أن تكون في بيانه النّبوي.
والاجتهادُ في استنباط هذه المعالم والملامح من النصيحة لسيّدنا رسول الله ﷺ ولسنته ، وللناس عامة، وخاصة. والعقل البلاغي العربيّ هو الأحق بأن يقوم لهذا .

ويعتري فيه سيدنا رَسُول الله ﷺ أمورٌ لا تكون حين يوحى إليه معاني الحديثِ النّبوي. ([1])

الحديثُ النبوي معناه إلهي موحى إليه، وصورة المعنى بيان من سيدنا رسُول الله ﷺ ،ولذا لم يكن لحديث رسُول الله ﷺ ما لبيان القرآن ، فهو لا يصلّى به، ولا يكون لتاليه من المثوبة ما لتالي القرآن : كلّ حرف بعشر حسنة، وفما فوقها، ولا يحرمُ مسّ أسفار الحديث النبويّ على غير وضوءٍ ، ولا يُرتّل كما يرتّل القرآن، بلْ يقرأ كما يقرأ سائرُ البيان، ولا يكتبُ برسمٍ خاصٍ كما يُكتبُ القرآن.

وممّا هو جديرٌ بالتبصر المتدبر علاقة الصورة التي يُعربُ بها سيدنا رَسُول الله ﷺ عّما يوحى إليه من معاني الحديثِ .

أعرابه عنها يوجبُ أن يكون فقهه ﷺ تلك المعاني كمثل فقهه لمعانيه التي يستولدها فؤاده، فإن المرء لا يطيقُ الإعراب عما لا يفقه ـ ، فإنْ حاول كان ما يأتِي به قولًا فارغًا أي فارغًا من الإحاطة بالمعاني جميعها أو أكثرها الّتي أراد الإعرابَ عنها .

ليس ميسرًا لغيرهِ ﷺ من البشر أن يُعرب بلسانِه عن معاني غيره إعرابًا مطابقًا، وإنما هو سيعرب عنها بمقدارِ فهمه له ، فيكونُ حاله كحال

---

[1]) روى البخاري في كتاب «بدء الوحي» عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ـ رضى الله عنها ـ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه ـ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْىُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَحْيَانًا يَأْتِينِى مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ ـ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَىَّ ـ فَيُفْصَمُ عَنِّى وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِىَ الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِى فَأَعِى مَا يَقُولُ » . قَالَتْ عَائِشَةُ رضى الله عنها وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْىُ فِى الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا

المترجم عن لغةٍ إلى أخرى.([1]) وبيانه ﷺ عن المعاني الموحاة إليه لا بد أن يكونَ محيطًا بالمعنى كما أوحي إليْه، وأن يكونَ مبينًا عنه جميعه لا يدع منه شيئا ، وإن كان نزيرًا لطيفًا.

وهذا لا يطيقه ﷺ ببشريته، وإنما يطيقه ويوفيه حقه على الكمال بإعانة ربانيةٍ فالمعنى وحي جميعه، ليس لرسُول الله ﷺ فيه شَيءٌ ،وصورة المعنى بتوفيق كأنه توقيف. ([2])

ومن شأن رسُول الله ﷺ أنّه فيما يتعلق بأمور الدّعوة ، أن يقولَ الشّيءَ ثلاثَ مراتٍ كيما يتقنه السّامعون ، وهو يقُوله في أكثر من مجلس، والظَّنّ أنّه في كلّ مجلِسٍ يُعيد فيه الإبانةَ عن المعنى الموحَى إليْه قد يكونُ منه ﷺ تصريفٌ بيانيٌ ما .

وفي كلّ تصريف إفادةُ وجهٍ من المعنى الموحَى إليه ، ذلك أنّ هذا المعنَى الموحَى إليْهِ ليس وجهًا واحدًا، بل هو متسعٌ ذو وجوهٍ بعضُها مصرح به وبعضها ملوّح به ، وما صرح به هو زادُ الدّهماءِ ،وما لوح به هو زاد الأصفياء ، فهو ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم، يقري كلًا ما هو

---

[1]) وأنت تقرأ كتابًا مترجمًا إنما تقرأ فهم المترجم لما يترجم، ولا تقرأ منطوق صَاحبِ النصّ، ولذا كانت الترجمة أشبه بنصٍّ على نص،وفي كلّ ترجمة تقريبًا شيءٌ من التقصير الاضطراريّ ، فقرأة النص في لغته التي صنع بها أعلى من قراءته في ترجمته.

[2]) رَوَى أبوداود في كتاب «السنة» من سننه بسندِه عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِﷺ أَنَّهُ قَالَ : «أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ وَلاَ كُلُّ ذِى نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلاَّ أَنْ يَسْتَغْنِىَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ ».

أليق به وأنفع ,أنجع. فتنوّع صور الإبانة في كلّ مرّة فيه وفاءٌ بحق المعنى ، فلا يكونُ في تنوّع صور التّصريف البياني منه ﷺ مخالفًا لما أوحي إليْه بل فيه وفاء بحقّ اتساع المعنى الموحى إليه ([1]) فتأتِي بعضُ الرّويات فيها شيءٌ مِن التّصريف البيانيّ عَن ذلك المعنى ، ويَكونُ الصّحابيّ الرّاوي واحدًا، وهذا ما تراه في مسند سيدنا أبي هريرة ﷺ .

ومَن غفل عن ذلك يحسِبُ أنّ تنوع الرّوايات من الصّحابي الواحد تصرُّفٌ منه وأن بعض هذه الرّوايات رواها بالمعنى .وهذا غيرُ حكيم .

كان الصحابة ﷺ أحرصِىَ على منطوقِه من كلّ شيْءٍ، فجريان كلمةٍ جرت على لسانه الشريف ﷺ في سمعك، وعلى لسانك هو الشرف ، فلا تبخلن على نفسك بشيءٍ من ذلك الشرف الجليل ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

كيف لقوم كانوا يسابقون على ألا تسقط شعرةٌ منه في الأرض حين يحلق شعره نسك، أو نخامةٌ إذنتنخك إلا استقبلوها بأكفهم يدلوم بها وجوههم –

---

[1]) فقه المعنى الموجى غلى رسولِ الله ﷺ يستوجبُ استقراء روايات الحديث الواحد ونيق بحسب قوة سند الرواية ، ثم استقراء ما تضمنته كل رواية ما جاء فيها زيادة على الرواية السابقتها، هذا الزيادات هي وجوه من المعنى المتسعِ الموحى إليْه ﷺ ،

وتصريفه ﷺ البيان عن المعنى الموحى إليه في كل مرة ينبئُ به إن في محلسٍ أواحد أو أكثر هو نظير التتصريف البياني للمعنى في الذكر الحكيم (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)(الأنعام:٦٥)(كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)(الأعراف:٥٨)(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا)(الإسراء: ٤١) (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء:٨٩)(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (الكهف:٥٤)

كيف لمثلهم أن يكون منهم رواية لحديثِه بالمعنى، وهم يعلمون شرف الكلمة والحرف الذي ينطقُ به ﷺ ([1])

وكيف بقوم سمعوه ﷺ يقول: « نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ ».(سنن الترمذي) ثم لا يبلغوا منطوق قوله كما سمعوا. ([2])

---

[1]) روى البخاري في كتاب«الشروط» من صحيحه فيما ما كان من صلح الحُديْبِية بسنده ِ عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ ﷺ في ما كان من حوار بين سيدنا رسول الله ﷺ ،ورسل قريش إليْه ، وكان منهم عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ وعرض على رسولِ الله ﷺ عرضًا ـ فقال له رسول الله ﷺ : « أَمَّا الإِسْلاَمَ فَأَقْبَلُ ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِى شَىْءٍ » . ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِىِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ . قَالَ : فَوَاللَّهِ ، مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صلى الله عليه وسلم - نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِى كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ أَىْ قَوْمِ ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِىِّ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ ، يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا ، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِى كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ ، فَاقْبَلُوهَا ... »

[2]) تبصر قوله ﷺ في هذه الروايه«فبلغه كما سمع» ، فهذا آيةُ علىوجوب الحفاظِ على منطوقِه ،والحذر من أمة كلمةمكان أخرى ،وإن كانت تكاد تكون أقربَ شسئٍ إليْها.

ونظر العلماء في مسألة رواية الحديثِ بالمعنى إنما هو خاصّ إذا ضاق الأمرّ ، فلا يجوز بتة أن يكون بمقدور الراوي أن يذكر الحديث بمنطوقه الذي جرى علىلسان رسول الله ﷺ ثم يروي كلمةمنه بالمعنى,

كلامهم فيما غذا ضاق الأمر على الراوي ،وكانت حاجةٌ إلى ذكر الحديث ، فقدأبيح له ضرورةً أن يعبر بكلمة قريبةٍ جدًا مما نطق بها سيّدنتا رسُول الله ﷺ .

جُمُعةُ القول: أن البيان النبوي إلهي المعنى أما الصّورة المعربة عن ذلك المعنى الإلهي الموحى إليه ﷺ فإنّما هي منه ﷺ بتوفيقٌ ربانيّ هو أقرب إلى التّوقيف .

واليقين بأن معانيه إلهي يكون رد شيئً منها إنما هوردّ على الله تعالى متى استوثق المرء أنه النصّ وثيق النسبِ إلى رسُول الله ﷺ ، فحقّه التسليم،وحقه تأويل ما كان ظاهره غيرّ متآخ مع مقام النبوة المحمدية تأويلًا منضبطًا بأصول التّأويل القيم الحكيم.

روى ابن ماجه في المقدمة من سننه،وأحمد في مسنده عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِىِّ عَنْ عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ ﷺ قَالَ : « إِذَا حُدِّثْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثاً فَظُنُّوا بِهِ الَّذِى هُوَ أَهْدَى وَالَّذِى هُوَ أَهْيَا وَالَّذِى هُوَ أَتْقَى. »

هذا من سيدنا عليّ ﷺ بيانٌ لِما هو فريضةٌ على كلّ متلقّ بيانَ النبيّ ﷺ ، فحقٌ أن يسبر كلّ متلقٍ ما يفد إلى فؤاده حين يسمع شيئًا من بيان النبوة، أثم ما هوأهدى واتقى،وأهنا مما توافد على فؤاده، هذه المراقبة لما يكون منك وأنت تتلقى بيان النبوة يستوجب أن يكون متلقيه بصيرًا بالمناظرة بين المعاني التي قد ترد عليه، وبصيرًا بما أهوالأعلى ، فيتخذ الأ

هدى،والأ تقيى والأهنأ، وفاءً بحقّ بيانه ﷺ عليه فإن لم يفعل، فقد ظلم «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ »

لو أنا ألزمنا أنفسنا بهذا الذي أنبأ به سيدنا علي ﷺ لسكت كثيرٌ ممن يهرفون بما لا يعرفون، ولتوجس خيفة كثيرٌ من صغار طلاب العلم من القول في بيان النبوة فإنه قاموس محيط متلاطمٌ لا يمس شاطئه إلا من امتلك مهارة السّبح والغوص . فليس أحمق ممن يتولى عملًا هو عليمٌ بأنه ليس له بأهل. ([1])

---

[1]) رَوى التِّرمذيّ في كتاب «الفتن » من جامعه بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ بن اليمان ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لاَ يَنْبَغِى لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ ». قَالُوا وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ. قَالَ « يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاَءِ لِمَا لاَ يُطِيقُ ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وروى الروياني بسنده عن عَبْدُ اللهِ بْنُ عَيَّاشٍ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ « أَنَّ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ لَمَّا وَلِّيَ خُرَاسَانَ، قَالَ: دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ حَامِلٍ لِخِصَالِ الْخَيْرِ، فَدُلَّ عَلَى أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، فَلَمَّا جَاءَهُ رَآهُ رَجُلاً فَائِقًا، فَلَمَّا كَلَّمَهُ رَأَى مَخْبَرَتَهُ أَفْضَلَ مِنْ مَرْآتِهِ ، قَالَ: " وَإِنِّي وَلَّيْتُكَ كَذَا وَكَذَا مِنْ عَمَلِي " فَاسْتَعْفَاهُ، فَأَبَى أَنْ يُعْفِيَهُ ، فَقَالَ:
" أَيُّهَا الأَمِيرُ، أَلا أُخْبِرُكَ بِشَيْءٍ حَدَّثَنِيهِ أَبِي ﷺ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟
قَالَ: هَاتِهِ، قَالَ: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:
« مَنْ تَوَلَّى عَمَلا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ لِذَلِكَ الْعَمَلِ بِأَهْلٍ ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»
وَأَنَا أَشْهَدُ ، أَيُّهَا الأَمِيرُ، أَنِّي لَسْتُ بِأَهْلٍ لِمَا دَعَوْتَنِي إِلَيْهِ".
فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ: مَا زِدْتَ عَلَى أَنْ حَرَّضْتَنِي عَلَى نَفْسِكَ، وَرَغَّبْتَنَا فِيكَ، فَاخْرُجْ إِلَى عَهْدِكَ, فَإِنِّي غَيْرُ مُعْفِيكَ ، فَخَرَجَ ، ثُمَّ أَقَامَ فِيهِ مَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَ، فَاسْتَأْذَنَهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ، فَأَذِنَ لَهُ، فَقَالَ: أَيُّهَا الأَمِيرُ، أَلا أُحَدِّثُكَ بِشَيْءٍ حَدَّثَنِيهِ أَبِي ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: هَاتِهِ، قَالَ:
« مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللهِ، ومَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللهِ, ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ مَا لَمْ يَسْأَلْهُ هُجْرا»
وَقَالَ: " أَنَا أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللهِ تعالى إلا مَا أَعْفَيْتَنِي ، أَيُّهَا الأَمِيرُ مِنْ عَمَلِكَ" فَأَعْفَاهُ. »

(مسند الرّوَيّاني . المؤلف: أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنِ هَارُونَ الرُّويَانِي .(ت: ٣٠٧ هـ) المحقق: أيمن علي أبو يماني، الناشر: مؤسسة قرطبة – القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ . ص: ٣٢٦ (رقم ٤٩٥) .

المِحْورُ السَّادِس:

مَوقِعُ بيانِه ﷺ مِن بيانِ القُرآنِ

كان مِن فَيضِ الرَّحمةِ أنّ الله ﷻ قد بيّن للأمّةِ منزلةَ بيانِ سيّدنا الرَّسولِ ﷺ مِن بيانِ القرآنِ فقال:(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (النّحل: ٤٤)([1])

وقال : (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (النّحل: ٦٤) ([2])

---

[1]) " اللام" في قولِه تعالى «لتبيّن» أهي "لام تعليل" أمْ "لام الحكمة" أم " لام الغاية" كالتي في « ليكون لهم عدوّا وحزنا» وهل يُفاد منها أنه ليس لبيان النبوة سوى التبيين ، وليس له تأسيس معانٍ ليست في أصل البيان الْمبيّن" القرآن" تصريحًا أو تلويحًا؟ تساؤلٌ جديرٌ بندارسة.

يقُول الطاهر ابن عاشور في دلالة لام العلة على الحصر:« وَلَيْسَتْ لَامُ التَّعْلِيلِ مُقْتَضِيَةً حَصْرَ الْغَرَضِ مِنَ الْفِعْلِ الْمُعَلَّلِ فِي تِلْكَ الْعِلَّةِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَشْيَاءِ تَكُونُ لَهَا أَسْبَابٌ كَثِيرَةٌ فَيُذْكَرُ بَعْضُهَا مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ »(التحرير والتنوير : في تفسيره:«» ليغفر لك الله)(ج:٢٦ص١٤٦)

[2]) ناظر الإعراب عن المعنى في الآية(٤٤) والآية(٦٤) وما بينهما من اتفاق وافتراق:
في الاية(٤٤) قال(الذكر) وفي الآية(٦٤) قال (الكتاب) وما هذا بتفنن عقيم
وفي الآية (٤٤) قال (للناس) وفي الآية: (٦٤) كان التبيين للمختلفين في ما أنزل عليه ﷺ.

في الآية (٤٤) التبيين عام، وفي (٦٤) تبيين ما اختلف فيه، ولا شك أن منهاج التبيين في ما اختلف فيه ليس هو هو تبيين العلم ، وما اتفق فيه ومااختلف .

ولا يكونُ المُبيِّنُ غيرَ المُبيَّن . إن هُو إلّا "مُفصِّلٌ" ما أجْمل ، و"كاشِفٌ" عمّا لَطُف ، علَى نَحوٍ قد يَحسِبُ العَجِلُ أنّ فِي التَّفصيلِ والكشفِ زيادةً رئيسةً على ما لَطُف ، وما أجمل ، والتَّبصُّر يَهدِي إلى أنّه ليْس زائدًا عليه زيادةً ليْس لها أصلٌ في ما لَطُف أو أجمل.

في الاية(٤٤) قال (لعلهم يتفكرون)(وفي (٦٤) قال وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ،)
قال (لقوم يتفكرون) قوله (قوم) حيث ورد يلفتك إلى مستوى الفعل وشأن فاعله ، هو فعل جدير بأن يقام له لعظيم أهميته عند فاعله أو عند من يطلبه،
وانظر إلى قوله (يتفكرون) تصوير الفعل قائمًا بين عينيك، وهو متجدد متنوع متفنن يتنامى ، فيرتقي من طورٍ إلى طور.
وجعل من غايات التَّبيين النّبويّ للنّاس أن يكونوا على حالٍ يُرجى منهم أن يتفكروا. أن يكونَ التفكِير سمة من سماتهم ، وألّا يكونَ شَيْءٌ في حياتهم إلا وتفكروا فيه ، وحين يبلغُ المرء هذا الحال ، فهو لا محالةً قد تحصّن من أن يُشغل قلبُه بما هو لغوٌ فضلًا عن أن يشغلَ بما هو سوءٌ ، فالقلب إذا شغل بالتفكّر في كُلِّ شَيْءٍ ، فإنّه يكونُ مشغولًا عَن سفاسِفِ الأمور، فالتَّفكير علاجٌ ووقاةٌ ونماءٌ - أيضًا - وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَفكرونَ
وقوله(ولَعض لَهم يَتفكرون) معطوف على(لتبين) فحكمة التنزيل تبيين الرسول ، ,ان يكونوا مأهلين للتفكير، وهنا تساؤل أن معمول (يتفكرون) هو تبيينه ﷺ أم يتفكرون في " الذكر" أي ما مناط التفكير، الذكرأم التبيين النبوي.
وقوله (وهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) معطوفٌ على مدخول(إلّا) فكأنّه قيل : (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إلّا هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وتبصّر عطفه الرحمة على " هدًى" وقوله (لقومٍ يؤمنون) دون قولنا : الذين آمنوا، أوالمؤمنين .
وما قلت في (لقومٍ يتفكرون) استحضره هنا أيضًا فإنّه نافعك .
كلّ هذا مهمٌ جدا ليكونَ لك ما أنزل عليه ﷺ هدًى ورحمة ، فإن رغبْتَ في أن يكونَ لك القرآنُ هدًى ورحمةً، فكُن مِن قوم يؤمنون، ومع قومٍ يؤمنون . أيْ كُن مِنْهم أيْ من فعلهم ومنهاج حياتهم وكُن معهم ، لا تفارقهم ، ففي صحبةِ الأماجد النّبلاء ما يشحذ العزم ، ويزيد عرفانًا بطرائق إنجاز المهام.
كلُّ عقيلٍ فهيمٍ إذا ما التقى بقومٍ نبلاءَ تعلّم منهم، فكان حالُه بعد لقياهم أعلى وأمجد من حاله قبل لقياهم. فافهمْ

من أهلِ العلم من يذهبُ إلى إنّ فِي الحديثِ النّبوي معاني وأحكامًا زائدةً على ما في القرآنِ : « كما تجيءُ السّنةُ مبينةً لآياتِ القرآنِ ... تأاي كذبك دالةً على أمورٍ سَكتَ عنها القرآن » ([1])

قوله:" سكت عنها القرآن" يفهم أنه لم يذكرها تصريحًا أوتلويحًا، وأنه ليس لها أصلٌ فيه تؤول إليه.

وهذا ما لا أذهبُ إليه. ليس فِي السُّنّةِ إلّا ما له أصلٌ في الكتابِ ومن ثمّ لا تجدُ في السّنة ما يُخالف ما صرّح به القرآنُ أو لوّح . وما ليس له أصلٌ في القرآن يؤول إليْهِ ([2])

---

[1]) دفاعٌ عن السّنةِ. تأليف محمد محمد أبو زهو ﷺ (١٤٠٣هـ) . تقديم أحمد عمر هاشم. نشر الأزهر الشريف. هيئة كبارالعلماء . الطبعة الأولى(١٤٤١هـ) . ص٣٠

[2]) روى الشيخان : البخاري في كتاب«التفسير» ومسلم في كتاب«اللباس والزينه» من صَحيحيهما بسندهما عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود قَالَ :" لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ." قَالَ : فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِى أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا "أُمُّ يَعْقُوبَ" وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، فَأَتَتْهُ ، فَقَالَتْ :" مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِى عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ " فَقَالَ عَبْدُ اللهِ : "وَمَا لِيَ لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَهُوَ فِى كِتَابِ اللهِ ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : " لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَيِ الْمُصْحَفِ ، فَمَا وَجَدْتُهُ" فَقَالَ : لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ : قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ :(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) [الحشر: ٧] فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : "فَإِنِّى أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا عَلَى امْرَأَتِكَ الآنَ" قَالَ :"اذْهَبِى ، فَانْظُرِى " قَالَ : " فَدَخَلَتْ عَلَى امْرَأَةِ عَبْدِ اللهِ ، فَلَمْ تَرَ شَيْئًا ، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ :"مَا رَأَيْتُ شَيْئًا" فَقَالَ : أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكِ لَمْ نُجَامِعْهَا."

هذا النص مُتْرعٌ بما يجبُ عليْك طالب علم - نصيحة نفسٍ - أن تستنبطه ،ولولا ضيق المقام لبينت لك شيئًا منه، ولعلي أفعلُ - إن شاء الله تعالى - لعظيم أهميته لنا في سياقنا الاجتماعي ،والله هو المستعان على ما يُرضيه.

ولو كان ما جاء به القرآنُ كلُه صريحًا لما كان معنى للأمر بتدبّره.

فالأمر بالتدبر آيةٌ على أن من معانيه ما يُحتاج إلى استبصاره تدبرًا للطفِهِ ، وليس الإتيان ببعضٍ معانيه لطيفةً من قبيل إعناتِ العباد - معاذ الله - بل ذلك لحفزهم على أن يستمتِعوا بنعمة التّفكر والتّبصر والتّدبر واستنباط ما هو مكنوزٌ ، فهو ﷻ كما جعلَ بعضَ نعمِه وآلائِهِ الّتي يحتاجُ إليها النّاسُ لإعمارِ الحياةِ مكنوزةً في باطنِ الأرضِ لا يتوصّل إليها إلا مَن كان فتيَّ العزمِ بصيرًا مليكًا للمهاراتِ والخِبراتِ والأدواتِ الّتي بها يستنبط ، ولو جُعلت كلّ النّعم على طَرف الثّمام لَما تفاضل الناسُ ، وما فكروا، وما اجتهدوا، وبذلك يكونون قد خسروا الاستمتاع بنعمة التّفكير والاستبصار، بل خسروا ما يُميزهم عن سائر المخلوقاتِ

.إنْ أنت إلا بحسين تفكيرك وتدبيرك وأخلاقك وبليغ تعبيرك .

كذلك معاني الهُدَى في بيان الوحي . منْ معانيه ما هو ظاهرٌ يدركُ بحسن الإصغاءِ ، وهو ما يُحفظُ على المرء بقاءَه في الإسلامِ ، ومنْها ما هو لطيفٌ ، وهذا من المعانِي الإحسانيّة الّتي نفعُها في التّرقي في مقامات القربِ الأقدس، فهي غذاءٌ وشفاءٌ وهناءٌ لِمن تجاوزوا الدّرجة الأولى في مدرج الإسلام والإيمان درجة« الذين آمنوا» وتطلعوا إلى درجة «المؤمنين» وما فوقها إلى درجة«الصديقية»

فكلّ ما له علاقة بالعقيدة ، والشّريعة ومكارم الأخلاق له وجودٌ على نحوٍ ما في الذّكر الحكيم تصريحًا أوتلويحًا

والله ﷻ يقول :(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)(النحل٨٩)

قوله (كلّ شيْءٍ) أي فيما نزل القرآن من أجلهِ ، من أصول وأحكام العقيدة والشريعة ومكارم الأخلاق ، أمّا ما يتعلّق بشؤون الحياة التي لا ترتبط بهذه الثلاثة : العقيدة والشّريعة ومكارم الأخلاق، فإنّ أمرَها إلى الناس وفق أحوالهم وسياقاتهم.

روَى مسلمٌ في كتابِ «الفضَائلِ» بسنده عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ ، فَقَالَ : « لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ ». قَالَ فَخَرَجَ شِيصًا ، فَمَرَّ بِهِمْ ، فَقَالَ « مَا لِنَخْلِكُمْ ؟». قَالُوا : قُلْتَ كَذَا وَكَذَا . قَالَ: « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ ».

وروى ابن ماجه في كتاب «الرّهون » مِن سُننه بسندِه عَنْ أم المؤمنين : عائشَةَ رضِيَ الله عنها - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ أَصْوَاتًا. فَقَالَ « مَا هَذَا الصَّوْتُ ؟». قَالُوا " النَّخْلُ يُؤَبِّرُونَهُ" فَقَالَ : « لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا لَصَلَحَ ». فَلَمْ يُؤَبِّرُوا عَامَئِذٍ ، فَصَارَ شِيصًا ، فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ :« إِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنُكُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ ».[1]

---

[1]) كأنك تقولُ في رواية مسلم عن عنس ﷺ قال ﷺ : « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ ». ،وفي رواية مسلم عن عائشةَ رضيَ الله عنها العبارة: « إِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنُكُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ ». كيف اختلفت عبارة رسول الله ﷺ ،والموقف واحد لم يتكرر. أليس هذا دليلًا على أن الصحابة قد يروون بالمعنى.

إن قلت فقد بقي عليك شيءٌ.نعم الحادثة لم تتكر، لكن رسول الله ﷺ لم يكن يقول العبارة مرة واحدة في الموقف كان يكررها ثلاثًا ليسمع من لم يسمع ، ويحفظ من لم يحفظ ، وليس بلازم أن تكون الثانية هي منطوق الأولى، وليس بلازم أن تكون الثالثة مطابقًا منطوقها منطوق الأولى والثانية. قال مرة ما روت عائشة رضيَ الله عنها ، وقال مرة ما روى أنس ﷺ فليس في هذا دليلٌ على أنّ الصّحابة يروون الحديث بالمعنى. وإنما تختلف الرويات إمّا لتعدد المجالس وإما لتعدد القول ثلاث مراتٍ في المجلس الواحد.

وما كان من قولِ سيدِنا رسولِ الله ﷺ لهم « لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا لَصَلَحَ ».

الباعث عليْه التشريع من وجهيْن:

الأوّل: أن يفقهوا أن اتخاذ الأسباب إنما هو تَديّنٌ وقنوتٌ لمراد الله تعالَى الشرعيّ الأمر باتخاذ الوسيلة «اعقلها وتَوَكّل»، لا أنّ السّببَ هو الموجدُ المُسبّب ، وإنّما نتخذ الأسباب لأنّا أمرنا باتخاذها ابتلاءً ، لا لتحقيق المسببات ، فمَن حسِب أنّ الأسبابَ هِي الفاعلةُ ، فقد ضَلّ، وإنّما الفاعل الله ﷻ، وما اتخاذ الأسباب إلا ابتلاء لنا ؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ - فمن اجتهد في اتخاذها موقنا أنها ليست بالموجدة للمسبب فقد هُدي إلى صراطٍ مستقيم .

والآخر : لأنبائهم أن ما كان من شؤون الدنيا ، فأمره إلى اجتهادِهم ، ومعارفهم ، وثقافاتهم ، وتجاربهم، وما كان من أمر الدين ، فحذار أن يأخذوه عن عقولهم ، وتجاربهم وثقافاتهم ، ليس له مصدرٌ يؤخذ عنه إلّا بيان الوحي.

فمن أخذ أمور دنياه ودينه جميعًا من عقله وتجاربه كان كمن أخذهما من الوحي معا لا يفعل من أمور دنياه إلا إذا وجدَه في بيان الوحي

وفي هذا تعليمٌ لنا ألّا نأخذ شيئًا إلا من مصدره الوثيق ، ولا نتلقى إلّا عن خبيرٍ خريت أحوذيّ فيه. فبذلك تستقيم الحياة.

*****

وكأنّي بمن يقول إن في السّنّة أحكامًا سكت عنها القرآن، لا يَعتدّ بالنّسب الخفي الدفين اللطيف بين ما حسِبه زيادة وما هو أصلٌ له في القرآن.

إن استهلال الحقّ سورة" البقرة" بالبيان عن كتابه بقوله : «ذَلِكَ الكِتَاب» هادٍ إلى أنّه الكَميل في الإحاطة بكلّ ما أراده منهم أمرًا ونهيًا ، وأنّه ليس من شيْءٍ أراده من عباده أن يفعلوه ، أوْ أن يتركوا فعلَه ، ولا يقرَبوه إلا وذكره فيه تصريحًا أو تلويحًا إجمالًا أو تفصيلًا، وجاءت السُّنة، فصرّحت بما لوّح وفصّلت ما أجمَل، فكانت بمثابة التَّصريفِ البيانِيِّ للقرآني، وما ينشأ من التَّبيين أو التَّفصيل لا يحسبُ زائدًا على الأصل . لأنّه وجد فيه على نحوٍ .

الأمرُ مرجعُه إلَى مستوَى التَّبصّر ، ونفاذ البصيرةِ وتغوّرها ـ فمن رأى أن ما في الحديث النبويّ له أصل في القرآن إنّما يعتد بنفوذ البصيرة ، ولمْحها ما بيْن ما في الحديثِ النَّبويّ والبيان القرآنيّ.

وقد كان الإمامُ الشافعي ﷺ ذا بصيرة نافذة، وعليمًا بالأنساب : أنسابِ البشر،وأنسابِ المعانِي، فذَهبَ إلى أن السّنة لا تأتِي بما ليس له أصلٌ ، وَلَوْ كان لطيفًا في القرآن.

يقُول الشاطبيّ(ت: ٧٩٠هـ) « تَعْرِيفُ الْقُرْآنِ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ أَكْثَرُهُ كُلِّيٌّ لَا جُزْئِيٌّ، وَحَيْثُ جَاءَ جُزْئِيًّا؛ فَمَأْخَذُهُ عَلَى الْكُلِّيَّةِ إِمَّا بِالِاعْتِبَارِ، أَوْ بِمَعْنَى الْأَصْلِ؛ إِلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ مِثْلَ خَصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ .

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى بَعْدَ الِاسْتِقْرَاءِ الْمُعْتَبَرِ أَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْبَيَانِ؛ فَإِنَّ السُّنَّةَ عَلَى كَثْرَتِهَا وَكَثْرَةِ مَسَائِلِهَا إِنَّمَا هِيَ بَيَانٌ لِلْكِتَابِ»([1])

---

[1]) الموافقات في أصول الفقه . تأليف :أبي إسْحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (ت: ٧٩٠هـ)تحقيق : عبد الله دراز. الناشر : دار المعرفة – بيروت .ج:٢ ص ٣٦٦

ولعلّ عَجِلًا يذهبُ إلى أنّ القول بأنّ أحكام العقيدة والشريعة قائمةٌ في الكتاب ، وأنّ السنة تَبيينٌ لها، لا تأتي بما ليس له أصلٌ في القرآن يؤيد دَعوَى الاستغناء بالقرآن عن السُّنة ، فهي لن تضيفَ شيئًا .

لو أنّه تريّث لَعلم أنّا لا نقولُ بأنّ كلّ أحكامِ العقيدةِ والشّريعةِ، ومكارمِ الأخلاق جاءت صريحةً في القرآن أو مفصلة فيه، كلاّ .

إنّا نقول إن أكثرها جاء على سبيل التّضمين والتّلويح ([1])

وقولنا إنّ ما في السّنّة له أصلٌ في القرآن لا يعني أنّ كلّ مَن ينظر في القرآن أوالسنة يعلم أصلَ ما فِي السنّة ، فلا يحتاج إلى بيان آخر يقوم مقام التّبيين ، وإنّما يدرك ذلك أهلُ العلم والنّظر الفسيح المتغور المقتدر على أن يبصر مسارب أنساب المعاني وإن دقت.

رسُول الله ﷺ هو أو مفسّر ومؤوّل ومبين للقرآنِ الكريم.

السنة قائمةٌ في القرآن تضمينًا،وتلويحت،والق[إنّ فتنمّ في السنة تفصسلًا وتبيينًا.

(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا)(الأحزاب :٣٤)

---

[1]) لعلّ بعض النّاشئة في طلبِ العلم حين ينظرون في أسفار أحكام القرآن أو أحكام السّنة ، يرون عدّة الآيات بالنّسبة لمجموع آيات القرآن قليلة لا تبلغُ العشر ، وهذا إنّما هو من النظر العجلِ أو الحسبان أن الأحكام العقدية ، والتشريعية والأخلاقية منحصرة في هذه ، كلا عظم الآيات إن لم يكن كلها مشتملة على حكم عقدي أو شرعي أو أخلاقي .

سورة «يوسف» مثلا فيها من الأحكام العقدية والشّرعية والأ خلاقية جدّ كثير

الأعلى أن قوله(الحكمة) هو "السنة" وليس من عطف الخاص على العام، بل هو من قبيل عطف التبيين على البيان .

والأعرابُ عن" السُنّةِ" بالحكمةِ مِن الإحكامِ ، فهي بالتّفصيل والتّبيين اتت على كل أحكامِ العقيدةِ والشريعةِ ومكارم الأخلاق، ففصل المجمل،وجلّت الخفيّ . فكانت محكمة .

******

حظُّ العقل البلاغي من تحقيق موقِع البيان النبوي من البيان القرآني.

لعلك تقول إن ما قلت في هذا المحور أرهإلى الفقهاء، ليس للعقلِ البلاغيّ فيه عمبٌ. والحقّ أن حظّ العقل البلاغي من هذه القضيد عديل حظه منأي قضيةٍأومسألةتركيبية ونحوها. بلإن حظه هنا بالغ الأهمية للطفالنظر البلاغيّ في هذه لبقضية.

العقل البلاغيّ هنا بحاجَةٍ حوجاء إلى أن يبصرّ معالم العلاقة بيْن المعانِي قائمة في بيانين: بيان القرآن وبيان السّنة ، وأن يسعى إلى استبصار مقتضِى أن تكون الإبانة عن هذا المعنى في القرآن تصريحًا أو تفصيلًا ، وعنه في السنة تلويحا أو مجملًا، وهكذا ، فكلُّ شيْءٍ هنا له مقتضٍ ، وله عطاءاتٌ لا يُقتدر على استحصاده ،فبيانُ الوجي قرآنا وسنة لا يخلُقُ على كثرة الردّ ، ولا تنقضِي عجائبه، ولا يملّ من أن يجود عليك حتى تملّ انت التبصر فيه،والتعرضّ لنفحاتِه. ، فهو لك محسنًا إذاما كنت له خدينًا مستبصرًا متفرسًا . إنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ .

أنت هنا بلاغيا عليك استحضار النّصّ المنهجي الكلي الذي أقامه عبد القاهر في طليعةِ كتابِه «أسرار البلاغة » وعليك حسن فقهه ، وحسن استثماره :

«واعْلَمْ أنّ غرَضِي فِي هذا الكلامِ الّذي ابتدأتُه، والأساسِ الّذِي وَضعتُه

(أ) أنْ أتوصّلَ إلى بيانِ أمرِ المعانِي :

- كيف تختلفُ وتتفقُ
- ومِن أينَ تجتمِعُ وتفترقُ،

(ب) وأفصّلَ أجناسَها وأنواعها

(ت) وأتتبّع خاصّها ومُشَاعَها... » ([1])

هذه الاستحقاقات هي فريضةٌ عين على كلّ عقلٍ بلاغي ينظر في ما بيْن اليان القرآن] والبيان النبوي؛ ليتبين له أنّ معاني البيان النّبوي إنا هي من معانِي القرآن. هما في ذلكعلى اتفاق واجتماع ،وأن البيان القرآن جنس للبيان النبوي،وأنهما يختلفان ويفترقان في منهاج التصوير .

وكذلك ترى في قولِ الله ﷻ : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)(النّسَاء:٨٠) دلالة على أن ما يكونُ من سيّدنا رسول الله ﷺ من البيان إنّما هو مِن بيانه ﷻ ، فطاعة بيانه ﷺ هو من

، ولو شئت مصطبرًا متبصرًا متدبرًا مليئًا لمهارات وأدوات التفرّس والتعور في أعماق البيان وفق ضوابط التدبر والاستنباط لكان لك أن تستنبط منها كثيرًا . وقد لا يتبين لك أن بعضًا منها لم يأت تصريحًا في القرآن،وإن جاء تصريحًا في السّنة.

الأمر جدّ ثقيلٍ حملُه نبيل جليل عطاؤه . فلحرِص على ما يَنفعُك ، واستَعِنْ باللهِ تَعالى ولا تَعْجِز. فإنّ الله ﷻ مع الذين اتقوا العجلة وكلّ ما يفسد الأعمال ، والذين هم محسنون قصدًا وفعلًا.

[1]) أسرار البلاغة (م.س) ص: ٢٦ فقرة(٢٢)

طاعةِ اللهِ سواء تبيّن لك ما بينهما من علاقة أو لم يتبين ، بل إن في الآية حثٌّ على أن يجتهد المرء حين يأتيه بيان من رسُول الله ﷺ لا يتبين له موقعه من القرآن في استبصار العلاقة بينهما،وتعيين موقع البيان النبوي من البيان القرآني ، لأنه لا تكونُ طاعة البيان النبوي من طاعة البيان القرآني إلا إذا كان موقعه منه مكينًا، وأنه منه .وان تغايرا في تصريف البيان عن المعنى، فما من معنى في البيان النّبوي إلا وهو قائم في البيان القرآن مع تنوع مستوياتِ الإبانةِ والدلالة جلاء وخفاء.

واستبصار هذه العلاقة ومستويات الإبانة والدلالة إنما هو عين مشغلة العقل البلاغي المهموم بتبيّن أنسابِ المعاني وتعيين مآلتها المصدرية والمصيرية. فالتأويلالبلاغي للبيان ذووجهين :

الأول تأويل يُبين عن أولية البيان ومتوغع

والآخر : تأويل يُبين عما يؤول إليه المعنى وينتهي

والعناية بالوجه الأول يكونتبيينًا لقوله تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)(النّساء:٨٠)

أما الوجه الآخر للتأويل ففيع تبيين لقولالله تعالى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤)(النساء)

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) (النّساء)

وقوله ﷺ : (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (النور :٥٤)

فالقرن بين الطاعتين آية على أنّهما سواء،وأن بيانه ﷺ الواجب طاعته فيه إنما هو من طاعةِ اللهِ تعالى.

وليس يخفى أنه لا يكون إنباء بأن طاعته ﷺ طاعة لله ﷻ ،إلا إذا كان في بيانه ما لا يتبين لك أنه من بيانِ الله تعالى، لأنه لو كان التطابق بينهما جليًا لكان جليًا أنهما سواء، فلماأنبأ أن طاعته من طاعة الله تعالى هدَىالدأن في بيان النبيّ ﷺ ما لا يتبيّن أنه في بيان القرآن مما قد يظن معه أنّه زائد على ما في القرآن،وأن في البيان النبوي ما ليس له أصلٌ في البيان القرآني. معاذ الله تعالى ، فليس في بيان النبيّ ﷺ ليسَ له أصل – وإن دق ولطف – في بيان الله ﷻ .

روى أبو داود في كتاب«السنة» من سُنَنِهِ بسنده عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِىِّ وَلاَ كُلُّ ذِى نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلاَّ أَنْ يَسْتَغْنِىَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ ».

قوله ﷺ « أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» قاطع أنّه ليس في بيانه ﷺ ما ليس له أصلٌ في القرآن

المعنى الوحد في بيان الوحي صرب البيان عنه أربع مراتٍ: صورتان في القرآن وصورتان في السنة.

صورتان في القرآن إحداهما تصريحية،والأخرى تلويحية ، الأولى زاد ثلةٍ،والأخرى زاد ثلةٍ أخرى أوغل في الإيمان معتقدًا وسلوكًا، همأهل الفهم عنالله ﷺ

يقول الله تعالى :(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (الزّمر:٢٣)

قوله ﷺ :« كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ » من وجوه معناه أن المعنى يرد فيه مرتين متشابهتين ، في تصوريف البيان عنها إحداهما تصريحية، يدرك منها المعنى كل سميعٍ ، والأخرى تلويحية ، يستبصر منهاالمعنى من كان ذا فراسة وبصيرةٍ نافذة متغورة.

والأمر كمثله في بيان النبيّ ﷺ يأتي فيه ما جاء في القرآن في صورتين : الأولى تصريحًا والأخرى تلويحا، فيكون للمعنى صورتان تصريحيتان أحدهما بيان من الله تعالى، والأخرى بيان من رسُوله ﷺ ،وصورتان تلويحيتان أحدهما من بيان الله تعالى والأخرى من بيان النبيّ ﷺ .

وبهذا يكون بيان النبوة كالتصريف البياني لمعاني القرآن. وفي تدبر ذلك من فيوض العطاء النّفيع المتيع ما لا يرغب عنه إلّا من سفه نفسَه.

وهذا يفضي إلى أن يكون تصوير المعنى في بيان النبوتّليس هو استنساخًا لتصويره في القرآن . فلكلّ منهاج تصويرٍ . وبهذا يتبيّن لك أن

بيان النّبوّة وبيان القرآن من حيث المعنى متآخيان وأنهما من حيث منهاج التصوير والإبانة متنوعان تنوعًا يتسع به المعنى في الفؤادِ الرّشيد المستبصر. ([1])

(

[1]) مما لا مندوحة لك طالب علم عن الن لا تتدراسهما كتاب «السّنة بيانًا للقرآن» لأستاذنا الجليل: إبرهيم محمد عبد الله الخولي ، وكتب «القرآن والحديث : مقارنةأسلوبية» تأليف الأستاذ القدير أد: إبراهيم عوض .

كتابُ أستاذنا الخولي يعمدُ إلى بيان أن ما في السّنة من معانٍ إنّما أصلُه في القرآن .

وكتاب أستاذنا إبراهيم عوض، يُبين ما بين القرآن والحديث من تنوّع في الأسلوب ، وأن أسلوب رسول الله ﷺ في الحديثِ ليس مطابقًا لبيان القرآن التّصويري للمعنى. ممّا يؤكد أن القرآن ليس من عند سيّدنا رسول الله ﷺ ، فلو كان من عنده ما كان يسطيع أن يتخذ أسلوبين مختلفين،

وكان خفيا برصد الكلم التي وردت في الحديث ولم ترد في القرآن ، وكذلك التراكيب التي وردت في بيان النبيّ ﷺ ، ولم ترد في القرآن.

والكتاب فريدٌ في بابه كمثل كتاب «السنة بيانا للقرآن» لأستاذنا إبراهيم الخولي »

المحور السّابع :

بلاغته ﷺ بين الإعجاز والإبداع

مضَى القول بأنّ بيانَ النبوةِ إنما معناه وحيٌ من الله ﷻ ، وأنّ صورتَه مِن النّبيّ ﷺ ، وأنّ إعرابه عن المعنى الإلهي الموحَى إليه إنما هوتوفيق أقربُ إلى التوقيفِ مطابقٌ لكل ما اتسع له المعنى الإلهي من الدقائقِ واللطائف، وأن بيان النبوةِ أعرب عن بعضٍ هذا المعنى تصريحًا، وبعضه تلويحًا ، وأن هذا التصريح والتلويح اقتضاه حال المعنى نفسِه ، وحال أهل تلقيه. والوفاء بحق مدارسة ذلك هو العقل البلاغي العربيّ ، وهو بحقٍّ لم يفِ له معشار مِعشار ما له عَلَيْهِ ([1])

---

[1]) وبرغم من هذا تشكو جماهير طلاب الدراساتِ العليا من أنهم لا يجدون موضوعات للدراسة، ذلك أنهم لا يكادون يعرفون أو يُعلّمون سوى دراسة الصورة البيانية في شعر فلان ،و الاستفهام في شعر فلان أو رسائل فلان, وكأن هذا كلّ ما يعملُ فيه العقل البلاغي.

لَو علِم أو عُلِّم لأمكنه أن يدرس الخواص التركيبية والدلالية لأسلوب الخطيب القزويني في كتابه الإيضاح، أو يوازن بين أسلوب السعد في "المطول" و"المختصر" ....

الميدان ما يزال وسيعًا . ولكنّا لا نحب إلا أن نأكلَ ما سبق أكله، و نتعبد بالاجترار والتقليد.

وكأنّهم يطبقون في شأن موضوعات البحث البلاغي قول سيدنا رسُول الله ﷺ في شأن العقيدة والشريعة ما رواه الشيخان بسندهما عن أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ الله عنها . قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « مَنْ أَحْدَثَ فِى أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ ».

ومَا رواه الإمامُ مسلمٌ في كتاب «الجمعة» من صَحيحِهِ بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلاَ صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ

مضى أن بيانه ﷺ إنما هوتبيين لما أنزل من الذكر الحكيم،فالعلاقة بينهما علاقة البيان (القرآن) والتبيين(السنّة) وأن هذا البيانَ النّبويّ يتسم بخصَائصَ وسماتٍ لا تكونُ إلا له. ولو اجتمع كلُّ النّاسِ على أن يأتوا بأعربَ منه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا ، لأمور ترجِعِ غُظمها إلى تأييد الله ﷻ لرسولِه ﷺ ، وبعضُها لشأنِ رسولِ الله ﷺ الّذي أرسلَه ربّه ﷻ رحمةً للعالمين، وبالمؤمنين رؤوف رحيم، وهذان يحققان لإعرابه عن المعاني الموحاة إليه إعرابًا لا يُمكن أن يتحقق نزيزٌ من سماته حتّى قيام السّاعة.

أنّي لبشرٍ غير نبيّ أن يأتِي ببيانٍ تسري فيه أنوارُ الرأفةِ والرحمة وظلالها أيًا كان موضوعُ القول، ولو كان إنذارًا ووعيدًا أو تهديدًا وترهيبا.

وأنّي لهم بأسلوبٍ يتسِمُ بكمالِ الصِّدقِ والأمانةِ والإحكام والحكمةِ في الإعراب عمّا يعتلجُ في الفؤادِ.؟

وأنّى لهم بأسلوبٍ يصلُحُ لكلّ سميعٍ فهيم ويصلحه.

وأنّى لهم بأسلوب إذا نقل إلى أيّ لسان آخر بقِيَ فيه جلالُه وجمالُه ؟ أثم من يُمكنه أن يدّعي أنه يمكنُ أن يأتيَ بشيْءٍ مِن ذلك أوْ يدعِي أن هُنالك

غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ « صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ ». وَيَقُولُ « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ ». وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَيَقُولُ « أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ ». ثُمَّ يَقُولُ « أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَىَّ وَعَلَىَّ ».

من يمكنه أن يأتيَ بذلك متظاهرًا مع أهلِ الأرض أعوانًا. أوْ من يدعَي شيئًا من ذلك؟

وإذًا ما كان القُرآن قد أعجز الخلائق ، ومعجزهم إلى يوم القيامة ،ومقيمهم في مقام «الإبلاس» فلا تحدّثُ أحدًا عقيلا نفسُه أن يُحاول أن يضارع شيئًا من القرآن ، ولو سورةً قليل عدّ كلمها. – إذا ما كان ذلك ، وكان بيانُ النّبوة معانيه وحيّ ، وكان بيانه ﷺ عنه مطابقًا لشأن هذا المعنى ، فهَلْ كان بيانُ سيّدنا رسول الله ﷺ معجزًا.

بعضٌ من أهل العلم لا يرَى ذلك ، ولعل ذلك آتيه منْ واحدٍ من أمريْن أو هما معًا :

الأوّلُ: أنّه يرَى أنّه قد دُسّ على بيانِ النّبوة ما سُمّي بالأحاديثِ الموضُوعة ، وأنّ المختصّين منْ أهلِ العلمِ استطاعُوا أن يميّزوا ما دُسّ عمّا جاءَ عنه ﷺ ، وتشابُه المَدسُوسُ على بَعضِ النّاس ، ولَولا أنّه مقاربه ما تشابه عليْهم ، ولما وجدنا أحاديثَ موضوعةٍ في أسفار بعضِ أهلِ العلمِ فهذا الحالُ دالٌّ علَى أنّه يُمكن أن يأتِي بيانٌ يتشابَه مَع بيانِ النُّبوة ، ويمكِن أن يَعجز بعضُ أهلِ العِلم عن اتقاء روايتِه لشدّةِ المُشَابَهةِ.

والآخر : أنّه من قال بأن البيان النبوي غير معجزٍ يربِطُ بيْن الإعجازِ والتّحدِّي ، فيرَى أنّ كلّ معجزٍ مُتحَدًّى به. وهذا غيرُ محكم ، ولو قيل كلُّ معجزٍ أهلٌ لأن يُتحدّى به ، وإنْ لم يُتحدّ ، لكان أعلَى، وإلّا لأفضَي قولُه هذا إلى أنّه ليس لرسولِ الله ﷺ إلا معجزةٌ واحدةٌ هِي القُرآن ، لأنّه هو الّذي تحدّى بِه.

والّذِي هُو حقٌ مبينٌ مَكينٌ أنّ النّبيَّ ﷺ له معجزاتٌ عِدّةٌ ، وأنّه لَم يتَحَدَّ إلّا بواحدَةٍ هِي «القُرآنُ» الْتزامًا بما أمرَ به ربُّه ﷻ منْ أنْ يتحدّاهُم بالقرآن.

ولو شاءَ ﷺ أن يتحدّى بكلِّ شيْءٍ منْ شأنِه وحالِه نبيًا مُرْسَلًا لصَحَّ له،وما اسطاع أحدٌ أن يأتي بمثلِه .

أثمّ من يصلحُ أن يقول الله تعالى له« وَإِنَّكَ لعَلى خلقٍ عَظِيمٍ»[القلم]

أليس هذا يَصلُح أن يكون معجزةً ، وأن يتحدّى به؟

مُعجزاتُه ﷺ أكثرُ من أن تُحصَى ، وإنّما آيتُه التّي يتحدّى بها إنّما هي القُرآن.

أمّا دعوى أنَّ وجود أحاديث موضُوعة آية على إمكانِ المشَابهةِ ، فتلك دعوَى غير حكيمةٍ، ذلك أنَّ أهل العلم لا يميّزونَ الأحادث النبوية من القول الموضوع المكذوب نسبته إلى رسول الله ﷺ بالنّظر في سنده فحسبُ .كلّا. إنّما ذلك عاملٌ من عاملين ، والآخر هُو متنُ القول، فتمييز الأحاديث النّبويّة من الأقوال الموضوعة من جهة المتن أقوى دلالة عند أهل السنة علمًا وعملًا من تمييزها من جهةِ السّند.

فنقد المتن يقوم على أمريْن رئيسين .

الأول : العرفان الحكيم المحيط بخصائصِ الإبانةِ النّبويةِ وسماتها:

والأقوالُ الموضوعة ، لا تتحقق فيها تلك السّمات. وهذا أمرٌ يُمكنُ أن يُعلّم .أيْ يُمكن أن يَتأتّي لك ببذلِ المجهود .([1])

---

[1]) هذا ما يجبُ أن يقُوم له أهل علم البلاغةِ العربي وطلابه في جامعاتنا ، فيوفونه حقّه، يرصدون ما غاب من سمات بيان النبوةِ في الموضوعاتِ ،فقلما رأينا من يعرضِ لما دسّ وافتري على بيان النبوة موضوع بحثٍ علمي يرصد

والآخر:إدراك نور النبوة في البيان النبويّ، وفقده في الكلام الموضوع.
وهذا أمرٌ لا يملكُه إلا أهلُ المحبّة ، أولي الأفئدة التي تطهّرت من الانشغال بالدّنيا، وأهلها، وامتلأت بمحبة سيدنا رسول الله ﷺ . أولئك إذا جاءهم القول المدسوسُ على سيدنا رسول الله ﷺ يَرون فيه ظلمةً ، فيردوه . فمن سخّر نفسَه وكلّه لله تعالى سخّر الله له كلَّ شيْءٍ .

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(الأنعام: ١٢٢)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(الحديد: ٢٨)

وقد حثنا سيدنا رسول الله ﷺ أن ندعو الله ﷻ أن يجْعَل لنا نوراًفي قلوبنا وسمعنا ....

روَى الشيخان : البخاري في كتاب «الدّعوات»ومسلم في كتاب «صَلاة المسافرين» بسندِهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما - قَالَ بِتُّ عِنْدَ مَيْمُونَةَ رضِيَ الله عنْها فَقَامَ النَّبِىُّ ﷺ فَأَتَى حَاجَتَهُ ، غَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ ، ثُمَّ نَامَ ، ثُمَّ قَامَ ، فَأَتَى الْقِرْبَةَ ، فَأَطْلَقَ شِنَاقَهَا ، ثُمَّ تَوَضَّأَ وُضُوءًا بَيْنَ وُضُوءَيْنِ لَمْ يُكْثِرْ ، وَقَدْ أَبْلَغَ ، فَصَلَّى ، فَقُمْتُ ، فَتَمَطَّيْتُ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَرَى أَنِّى كُنْتُ أَتَّقِيهِ ، فَتَوَضَّأْتُ ، فَقَامَ يُصَلِّى ، فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ ، فَأَخَذَ بِأُذُنِى

ما غاب من سماتِ البيان النبوي فيه، وما قام فيه من السمات التي لا تليقُ بمقام النبوة .
هذا بابٌ من العلم لمّا يزل يتحاماه أهل العلم وطلابه وهو جديرٌ بأن يُستنفرُوا له

فَأَدَارَنِى عَنْ يَمِينِهِ ، فَتَتَامَّتْ صَلاَتُهُ ثَلاَثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً ، ثُمَّ اضْطَجَعَ ، فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ - وَكَانَ إِذَا نَامَ نَفَخَ - فَآذَنَهُ بِلاَلٌ بِالصَّلاَةِ ، فَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ ، وَكَانَ يَقُولُ فِى دُعَائِهِ :

« اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِى قَلْبِى نُورًا ، وَفِى بَصَرِى نُورًا ، وَفِى سَمْعِى نُورًا ، وَعَنْ يَمِينِى نُورًا ، وَعَنْ يَسَارِى نُورًا ، وَفَوْقِى نُورًا ، وَتَحْتِى نُورًا ، وَأَمَامِى نُورًا ، وَخَلْفِى نُورًا ، وَاجْعَلْ لِى نُورًا » .

أصحاب " النّور" يميزون به بيْن البيان النوي، وما دسّ عليه، فالقول بأن وجود ما يسمى بالوضوعات آية على قربِ التشابه كخرجه ملاحظو حال الذين ليس معهم نور ، فيشتبه الأمرُ عليهم، ومثلهم لا يستدلُ ولا يستأنسُ به على شيْءٍ.

*****

ولو شاء أحدٌ إلى يوم القيامةِ أن يأتي بشَيْءٍ مثلِ بيانه ﷺ لانكشف عواره، ولذا كان غير عسيرٍ على أهل العلم بالحديث المستمسكِين بهديه الذين اختلطَ بيانُه النّبَويّ ﷺ بهم، - كان عليهم يسيرًا أن يَنقدوا ما ينسبُ لرسول الله ﷺ من متنِه، فهم يعلمون خواصّ بيانِه ﷺ ، ويَملكون تميزَ ما هو مِن منطوقِه، وما ليس منه دون الحاجة إلى النّظر في سِندِهِ (١)

---

(١) من المعلوم لأهل العلمِ بالشعر أن الأعيان من علماء نقد الشعر يملكون من المهارة والخبرة ما يستطيعون أن يبينوا ما يصح نسبته للاشاعر،وما هو منحول عليه أومنسوبٌ لغيره،وهوله.

وعير بعيد عن وعيك ما كان من شأن الفرزدق مع ذي الرُّمة، حين أرفده جريرٌ بأبيات في هجو " هشام المرئي" فأدخلها ذي الرمة في قصيدته، فلما سمعها الفرزدق قالها له« ليس هذا من بحرك , مُضيفها أشدُ لَحيين منك! ، فاستدركها بطبعه , وفطن لها بلطف ذهنه. كما يقول الخطابيّ.

وهذا يستوجب عند التوثق من صحة نسبو البيانِ إلى سيّدنا رسول الله ﷺ أن يجتهدَ متلقيه في أن يستنبطَ منع معاني الهدَى المكنوزة فيه ،ولا يكتفي بالنعاني العقلية التييمكن لغيرِ تقيّ عليمٍ بلسان العربية أن يستخرجها.

استنباطُ معانِي الهُدَى الإحسانيّة من بيان الوحي قُرآنا وسنة إنما يتأتّي لمن تحقّق فيه أمران :

(الأوّل) عطاءٌ مِن عين الجُود الربانيّ ، والله تعالى أعلمُ حيثُ يجعلُ عطاءَه. فتَعَرضْ لنفحات الله تعالى بحسن القيامِ في مقام العبودية العِبادِيَّة.

(والآخر):الوفاء ببذل المجهودِ في الإحاطة بعلومِ اللسانِ العربيّ ، وأصول فقه العقيدةِ والشّريعة ،وأصول فقه الإحسان.

(راجع : بيان إعجاز القرآن . تأليف أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت:٣٨٨هـ) المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام . مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب : ١٦)الناشر: دار المعارف بمصر.الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م .ص: ٢٥) وانظر:

الأمالي :تأليف أبي علي القالي: إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (ت: ٣٥٦هـ)عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي الناشر: دار الكتب المصرية .الطبعة: الثانية، ١٣٤٤ هـ .ج : ٢ ص١٤١ ،

و الممتع في صنعة الشعر.المؤلف: عبد الكريم النهشلي القيرواني .المحقق: الدكتور محمد زغلول سلام، الناشر: منشأة المعارف، الإسكندرية -ص ١٦٦

والعمدة في محاسن الشعر وآدابه. تأليف ابن رشيق : ابي على الحسن بن رشيق الأزدي ، القيرواني (ت: ٤٦٣ هـ)تحقيق :لمحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. الناشر: دار الجيل. بيروت: الطبعة: الخامسة،عام: ١٤٠١ هـ.ج:٢ص ٢٨٦

هذان المرانِ لا يُغني أحدهما عن الآخر. هما متلازمان فالله ﷻ لا يجود إلا لمن استفرغ جهده الفَتِيَّ الرشيد .